رواية

ليل عامر

أحمد عمرو

obeikan.com

دار بيوند للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
الكتاب: ليل عامر.
المؤلف: أحمد عمرو عثمان.
تصنيف الكتاب: رواية.
تصميم الغلاف: محمد علي.
إخراج داخلي: محمود ربيع.
المقاس: ١٤×٢٠
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٢٩٢١٤
الترقيم الدولي: 978-977-6645-08-0

رئيس مجلس الإدارة
محمد عزالدين

المدير العام
صبرينة غلمي

All Rights Reserved
Beyond for Publishing and Distribution
+2 01095600007
beyond.dbh@gmail.com
www.facebook.com/beyond.PDH
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ودار النشر

إهداء

- للأحبة منذ الميلاد أبي وأمي من شجعوني ودعواتهما تشملني أينما سِرت.
- أختي التي لم تقرأ ولكنها تُشجع ولو بابتسامة.
- الكاتب والصديق/ أحمد ناصر... السند والناصح والمُشجع.. دُمت موفقًا.
- الكاتب والصديق/ أحمد ابراهيم صاحب الأفكار العظيمة والدعم الدائم.
- الصديق/ حُسام محمد وهلاوسه الذي قرأ الرواية وعَشِق إحدى شخوصها.

إلى الأصدقاء الأعزاء المُشجعين: أحمد راضي- وليد أحمد- إسلام عبد الله - إبراهيم السعيد - محمد راضي.

- لكل الأزمات والخيبات والأحزان التي أوقفتني ودعمتني كي أسير مجددًا.

obeikan.com

- الكاتب والصديق/ وليد أحمد الأخ الحقيقي والعقل المدبر.
- رابطة الأدباء المصريين بكامل أعضاءها، ومجهود الدكتور والكاتب/ محمود صلاح.

obeikan.com

إهداءِ خاص

لـ دعاء الطنطاوي..

الـروح والملجـأ والعِشـق.. دُمـتِ السـند والحياة..
ومُبتـدأي ومُنتهاي..

obeikan.com

obeikan.com

فينال (١)

"فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَمَاوَاتِ وَالأَرْضَ"

سفر التكوين ١:١

الشتاء الأسود ولياليه التي تبعث الرعب بسماءه الملبدة بالسحب الرمادية، ما تثير في النفس إلا ضيقًا فوق ضيق البرودة والتبلور حول ذاتك؛ علّها تدفئك.

المطر! هذا السِحر في قطرات، هرمون سعادة أو غاز شجاعة يُفرَز حينما تبكي السماء- كما يقولون- فتملأ نهر الحب بدموع ملائكتها، لماذا دموع؟! ألا تضحك الملائكة؟

ولمَ نهر الحب إن كانت دموع؟! فليكن نهر الموت .. هو حقًا هذا النهر..

أنا في أتم الاستعداد للحزن .. تُرسَل علاماتٌ إلهية لتحيط سيادتكم علمًا بأنك على وشك الابتلاء .. تصدّقها أو لَا، يرجع الأمر لك .. فإن كان لا، لا تُصدَم من ارتفاع ضغط الدم أو تتعجب من شعورك بدوار مفاجئ ويتهافت مَن حولك على تقديم يدِ العون، فيُسمِعُونكَ عذَب الكلمات، يحثوك على أن تبق «جامدًا» و «شِد حِيلك»، قد ينهروك على انهيارك، بالتأكيد لن يخلُ من «الراجل مايعيطش» تلك العبارة الغير منطقية، كيف لأحد ألا يبكي ؟!

يسلبونك حقك حينما أرادوا هم، محلِّلِين لأنفسم ما يقولون .. لمن الحق اليوم؟ للأغبياء القاهرِين!

«قلبي مقبوض» قلبي أنا.. لا ينقبض، لا أعلم معنى الكلمتين .. ماهية حالة الانقباض لا أعلمها، أينما سمعتها أتعجب متسائلًا عن طبيعتها، أتراني أشبههم من يسلبون الحقوق وأنا لا أدري! الأغبياء!

ذلك الانكماش المؤلم الذي يُعلمك بوجوده فور حدوثه، فيؤثر في فعلتك أيًا كانت .. سقط كوب المياه من يدي .. انتحر! أم مات.. أم قتلته أنا! تحررت المياه من أحضان زجاج تكرهه .. ما أعلمني؟ علّها سقطت في غرامه وحطمت أنا قلبيهما! لكن أنا لم أرد إسقاط الكوب.

لأفعالنا ضحايا الماء وأجزاء الزجاج تناثرا على جسد الأرض الطاهرة، هل حقًا طاهرة مع كل هذه الأحذية التي تصليها خطأ.

متشبعًا بثقافة الراحلين، فأعلن في نفسي وللناظرين كأنهم قضاة سيصلونني سعيرًا على جريمتي .. «دلق القهوة خير» فماذا عن الماء؟ وهو طهورٌ.. ابتسم لعل اللّه يحدث من عنده أمرًا يكن مفعولًا فيخرجني من هذا الموقف العصيب.

لماذا ينظر الجمع إلى أي صوت يحدث؟! فضول أم سعي لمساعدة؟ مجرد سؤال مثل كثير من أسئلة لا يسعنا العقل إجابتها، أو أننا لا نريد أن نسقط في خطأ .. لا عليك.

كأني أشبّه على الصوت ويأتيني من غيابات جب سحيق، صوت هاتفي، أفزعتني! أجَبتُ، لم أنهِ المكالمة وتوقفَتْ بي العقارب..

– النهاردة، بعد صلاة العشاء.

– .....

فينال (٢)

الطريق لا ينتهي حينما نريد الوصول .. الأسئلة أشخاص يسيروا حولنا، يعترضونا، وقد يوقفونا كُرهًا كمطب عثر أو حفرة عميقة، توقفت دموع السماء وصار الطقس صيفًا رغم أننا في عز يناير وأثناء نوة.

حتمًا سأصل إلى غايتي إن أعطاني ملك الموت الفرصة، ويبدو أني نلتُ فرصتي.

عامر، أيها البعيد الآن لدرجة القرب، كيف استقبلت موتك؟! تألمتَ حينها؟ هل أخذتَ حمَّامَكَ قبلها؟

ها نحن نجتمع في حضرتِك يا مَن لم تكُن يومًا مولى أحد منا..

اختاروا المسجد الصحيح، يبعد خطوات تعد على أصابع اليد الواحدة بالكثير .. الكثير جاءوا ليأخذوا ثواب الوداع، أم ليطمئنوا أنك رحلتَ بالفعل؟

اعذرني يا عزيزي، لم أُصَل العشاء، أتوقع آية الركعة الأولى «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ»، لن أُصَل الجنازة فأنا جُنبٌ ولا أريد التطهّر، خطأيًا لن يقدر عليها تطهري فلعلي أدعو لك إن صح لي هذا، سأقف إكرامًا لذكرياتنا النجسة قبل الطيبة بين

صفـوف المصلـين الذين يهمـون بعد أداء صلاة العشـاء مع سماعهم لقول الصوت الرخيم بميكروفون المسـجد، الذي كان جامعًـا وأثنـاء الزحـف الإسـلامي الجديـد في القرن الحـادي والعشـرون أصبح مسـجدًا، «صلاة الجنـازة على عبد اللّه الحاضر» سوف أمسح دموعي كي لا ينظروا إليّ فيشـفقوا أو يظنوا بي ظن السـوء، فلن يغفر لي تواجدهم بالمسـجد ألا يعصوا اللّه.

أرفع يدي مع أول تكبيرة..

- اللّه أكبر

أقرأ لك الفاتحة، أتشـعر بنا الآن؟ سأقرأها بكل خشوع وهدوء...

- اللّه أكبر

أقـرأ السـلام علـى سـيدنا محمـدًا وآلـه وأبينـا إبراهيـم الخليل وآله بكل خشوع، اعذرني إن أسرعت في آخر جزء فالإمام أسـرع بالتكبيرة الثالثة..

- اللّه أكبر

ركعتك! دعواتنا للمي.. ت، سامحني يا صديقي..

- اللّه أكبر

دعاؤنا لنا ولموتى المسلمين ولك مجددًا ...

تنتهـي مراسـم المرحلة الأولى مـن وداعك بالسـلام على

اليمين وعلى اليسـار، تتحرك الجمـوع باتجاه الباب .. أرى والـدك... أتقدم تجاهـه.. أعانقه والدمـوع تغالبني فأرتمي بأحضانـه.. فـلا تقـرب ذراعيـه ظهـري، تبـدو صدمتـه لا تُوصَف، أخرج نفسي من معانقتي له وأنظر معزِّيًا بكلمات العـزاء المعتادة، فلا يجيب ولا ينظر تجاهـي.. وجهه مسـودًا كأنـه بشـرٌ بتبـوءِك لمقعـدِك في أعالـي السـماء، أنضـم إلى الخارجـين الذيـن يهمّوا كـي يحملـوك منطلقين إلى منزلك الأخير، مسـرعين! ألهـذه الدرجة تريـدون الانتهاء؟! لمَ لا تدَعُـون لمحبِّينَـه فرصـة التمتـع بحضوره لآخـر مرة .. أغبياء!

opelikan.com

فاينال (٣)

صوت غراب ينعق أتخيل أني أراه فاردًا جناحيه الكبيرين فيظلل نعشك من ضوء القمر «البدر» كي لا تتحول إلى مستذئب متوحش، ينتفض من موته فيجلس نصف جلسة مزيحًا الغطاء الخشبي ليسقط أرضًا على رؤوس حاملينك والسائرين جوارهم وعن يسارهم والأمام والخلف، ثم تُمزق الكفن الأبيض اللامع تحت ضوء القمر، فتنظر لنا جميعًا لتدرك من جاء معزيًا حقًا وأخرين مجرد معزيين ساعيين لثواب الدفن وغيرهم مُجبرين ، إذا نظرت إلى ركن بعيد سوف تجدهم بالثياب السوداء يهيلوا التراب على وجوههم ينشدوا صرخات الحزن إبتهالات لأعالي السماء .. كيف لم يسمعوا أن البكاءَ يعذبُ الميت! أيريدوا هذا حقًا؟

لم يحدث شيئًا إلا صوت الغراب .. أغُراب هو أم كَروان يدعو لك؟ وحده طه حسين ظن به ـ الكروان ـ الدعاء !

فينال (٤)

«هَلِ انْكَشَفَتْ لَكَ أَبْوَابُ الْمَوْتِ، أَوْ عَايَنْتَ أَبْوَابَ ظِلِّ الْمَوْتِ؟»

سفر أيوب ١٧:٣٨

نصل إلى مثواك الأخير، هكذا يقولون.. حفل وداع أم استقبال؟! وداع لنا جميعًا واستقبال لملائكة، دود، تراب، وجيران من أرواح ذاقَت ما سوف تتذوَّقه بعد أن تُسأل وتحاسب حساب المَلكين.

أقف بعيدًا، اعذرني يا عزيزي لن أقدرَ على وضع حياتنا بيدِي في تراب يلتهمها بنهم وأشاهده صامتًا، وماذا عساي أفعل؟!

«لِمَنْ الْمُلْكُ اليَوْمْ للهِ الوَاحِدِ القَهَّار»

الحانوتي يعمل بمهارة .. يعلم خطواته جيدًا، بماذا يشعر حينما ينام وتأتيه الأحلام؟، يظهر الصوت العميق وسط إزدحام المعزين المودعين المنتظرين... إذْنُ الإفراج بانتهاء مهمتهم، أن «شكر الله سعيكم، والعزاء مقتصر على تشييع الجنازة» ها قد أتى التصريح، فلتُفتح الهواتف وتُشعل السجائر وتُطلَق الألسنة وتَضحك الأفواه عن آخرها كأن جميعهم فَقَدُوا ذاكرتهم بعد آخر عبارة.

في حين يصطف الأقارب، والدُك يسندوه حتي يقف في أول الصف يستقبل تعازي الذين يريدون إثبات أنهم «عملوا الواجب».

- بيقولوا مات في وضع.. اللّه يسامحه بقى!
- اذكروا محاسن موتاكم يا أخي.

أنظرُ سريعًا لمصدر الصوت، أُتوه بين الوجوه فلا أستطيع تحديد مَن قال هذا .

لن أصافحَ والدك مثل البقية، فأعانقه، فيبكي كلانا ذكرياتًا وأيامًا، قد أبكِ وحدي ويظل هو ثابتًا بين اثنين يحافظان عليه خوفًا من السقوط كأن الحديث الذي استمعتُ له حقيقيًا! أو أنا ظننتُ هذا؛ لكثرة ما أعرفه عنك يا عزيزي ، وانفضوا من حولك ..

وأنا مثلهم .

***

محمود

أعود إلى القهوة، كأني واحدًا ممن تَمَضغ لساني بسببهم أثناء الجنازة.. فور جلوسي إلى طاولتي المعتادة، يصلني «محمود» -صبي الشيشة- بالمعسل الذي أحرق فيه أفراحي وأحزاني، متعة تبخر آهاتك مع دخان متطاير يختفي في أحضان الهواء .. صوت «الكركرة» موسيقى عذبة أظن بيتهوفين فقدت موسيقاه الكثير دونها.

– أومال انتَ مشيت مرة واحدة كدة أباشا، إيه مش عوايدك!

محمود يتميز باجتماعية مُفرطة .. لسان رطب بالكلمات التي لا تتوقف مع الزبائن، كلٌ حسب شخصه وفئته العُمرية .. أداؤه سريع رغم جسده الصغير النحيل، أشفق عليه كلما رأيته داخل قمصانه الواسعة وبنطاله الذي لا يتبدل إلا نادرًا، علامات الشيب وألاعيب الزمن تركت بصمتها على وجهه، وتدخين الشيشة والسجائر السادة والمحشوة يجعلوا من أسنانه إعلان يُوضع على عُلب السجائر بإمتياز ...

– وصاحبك الطويل أوي ده فينه؟ ما بيظهرش ليه؟

سؤالك الأخير لو تعلم يا «محمود» أنه سِنجة تنغرز في الصدر تمامًا، أحيانًا تشعر برغبة الحكي لشخص لا تعرفه، تسرد له كافة تفاصيلك بتفصيلاتها الأدق، لا تعلم لماذا؟!

- اللّه يرحمه.. اتوفى يا محمود النهاردة.. ادعيله!
- لا إله الا اللّه ربنا يرحمه، الموت ما بيرحمش .
- ولّا بيرحم، هتفرق يعني ؟
- استغفر ربك أباشا، الموت راحة برضك!
- وإيه عرّفك؟ ما يمكن يكون تعب وعذاب والملايكة تقطّع من لحم أهله!
- ربك رحيم أباشا واللّه.. طب تعرف، أقسم باللّه وما ليك عليا يمين، أنا كل يوم ع اللّه بتمنى الموت.. أصلها هتبقى راحة.....

يتوقف لحظات؛ كي يزيد عدد «الولعة» على الشيشة للشاب الجالس بطاولة تجاورني، يسأله عما إذا كانت «تمام..؟ جرب كدة» ولا ينتظر رد، ثقة بأن عمله لا يقدر على القيام به غيره .

- أنا بقالي في الشغلانة دي بتاع عشرين سنة! أه واللّه زي ما بقولك كدة.. بدأتها من وأنا لسه عيل .. لفيت وشفت واتبهدلت وطبعًا اتجوزت وخلفت، سُنة الحياة!

يتوقف قليلاً وهو ينفخ في «الولعة» و يحركها في دوائر مثل ألعاب الملاهي وينظر في اتجاه آخر، ثم باتجاهات طولية مستقيمة للأعلى وللأسفل فتصدر صوتًا تنتشي له الأنوف ويعود لحديثه .

- بص بكيفك غصب عنك هتتجوز.. هيجيلك وقت وتحس إنك محتاج حد معاك، هو الحد اللي هيطلّع ـ لامؤخذة ـ بوز أهلك مصاريف ووجع دماغ وصداع.. بس شر لابد منه.. دلوقتي الفلوس ما بتكفيش والطلبات ما بتخلصش، واحنا بنتعب ليه إلا عشان العيال، بس زمانهم أسود من زمانا، وسط كل

ده لازم يكون الموت أريح، حتي لو هتدخل جهنم ما أنت شوفت منها هنا وسط الوساخة اللي احنا عايشين في أمها!

أجدني بتلقائية أقول

- ما تشغَلني معاك يا محمود!

كأن لساني مِلك غيري ويتحدث نيابة عني .. يضحك محمود ضحكة مكتومة يظنها بالتأكيد سُخرية منه، فيرد بنفس ظنه:

- أباشا انتَ تنور والله بس مش مقامك!
- ياعم مقام مين وكلام فاضي إيه.
- والله أباشا وما ليك عليا يمين تاني أنت تروح فيلل وقصور وتتعامل مع بشوات وبهوات وأحلى شرب وأحلى عيشة .

تروقني الفكرة، هل لنا بتغيير جذري يقتلع كافة أحداثنا ومشاركينا في الحياة دفعة واحدة؛ لتظهر بشخصية أخرى وطِباع مختلفة تمامًا تصنع ما أردتَ فيها وتُعبر بالشكل الذي يروقك بعيدًا عن رؤية من تعرفهم لك بأنك مثلاً ـ مؤدب ـ مايعملش كدة أبدًا.

استأذنني في متابعة العمل، سيحكي حكايات أخرى ويعطي آرائه في العديد من الموضوعات و يحلل الوضع السياسي أو الاقتصادي أو أي وضع تبدؤه أنت أو هو.

أنتظره أن يعود، حتمًا سوف يعود.. الولعة سيدة الأمر، الولعة ربَّة عمله لا يمكن لأحد أن يكَسرها، ينتابني حالة من ضيق التنفس أثناء أحد أنفاسي فأخرج الدخان وأنا أسعل وأكح وهذا ليس من عادتي، أضع «ليَّ» الشيشة على

الطاولة وأنا أسقط أسفل سافلين، رياح عاتية تسحبني من قدميَ، أمسح جبهتي التي غطتها شلالات من العرق المُنهمر على عيني، يصل إلى فمي.

أفتح عيني مجددًا لأجدني جالس نفس جلستي والحمد للّه لم يلتفت أحد لي ورآني -إذا كان ما حدث حدث حقًا-، يأتي محمود ويقف يُشعل سيجارة وهو مقتضب الحاجبين ويدخن بغضب، أعرضُ عليه الجلوس -وطبعًا- يرفضُ؛ لكي يُتابع إذ احتاجَ إليه أحدٌ وَجده، أحاول جذبه من جديد فأسأله:

- إيه أسرع طريقة للموت يا محمود؟

فيجيب بسرعة كأنه متوقعًا لسؤالي :

- غمض عينيك وعدي الشارع أباشا .

فينفجر في الضحك ويضرب يده بيد الكابتن ذو اللحية الخفيفة والجسم الرياضي والصوت الهادئ الرخيم فيتابع :

- ومن غير ما تغمض يا حودا .

فيضحكا مجددًا ولا إراديًا أضحك أنا الآخر! وسط الضحك يعودني ضيق التنفس؛ فأصرخ بحدة فأمسك بجانبي الأيسر، وثم أعود للخلف أبحث وسط ظلمة عيني المُغلقة عن هواء أتنفسه فيُحرر روحي المقبوضة، ولكن لا أجده .

***

«لأَنَ أَمْوَاجَ الْمَوْتِ اكْتَنَفَتْنِي، سُيُولُ الْهَلاَكِ أَفْزَعَتْنِي»

سفر صموئيل الثاني ٢٢:٥

***

أراه يبتسم جالسًا فوق صدري.. ملك الموت! هي رائحته! أصرخ بهم أن «ابعدوه عني يا أغبيا! عايز ياخد روحي!» يضحكوا! أعلى.. وأعلى! يزداد فيضان العرق فيغطي جسدي بكامله، أشعر به في أبعد مناطق جسمي عن ملمسي وأضيقها، العرق داخل أعضائي ونفسي، أشير بيدي المفرودة عن آخرها كشجرة لبلاب تمتد كما تُريد لنفسها.. فلا مُجيب.

الحياة تتباطئ.. صوت نبضات قلبي الغير مُنتظمة تُحرك الأحداث، مع كل نبضة تتقدم خطوة، تبتعد أخرى، يُفتح باب، ويهمُ بالإغلاق آخر.. يستأخرون ويستقدمون ما لهم من سبيل إلا الإستسلام.

جاثم على صدري ويضحك.. أراها وسط ضبابتي وظُلمة عيني.. لحظة! كيف لي أن أراها هكذا وسط هذا التباطوء! هي الوحيدة التي تسير كما تحلو لنفسها.

أعود على صوت محمود وهو يُكمل:

- ولا يهمك دلق القهوة خير!
- ايه اللي حصل!

أسأل وأتمنى أن أجد ما يُثلج صدري، فيُتابع محمود وهو يضغ «غيار» لحجر المعسل ثم ينفخ فيه ويضع التاج:

- خبطت في الترابيزة غصب عني.. تعرف أباشا بمناسبة الموت.. آخر حاجة عملتها لأبويا الله يرحمه.. فنجان قهوة.. أه والله زي ما بقولك كدة!

تجتذبني المُصادفة فأسأله عن المزيد:

– اللّه يرحمه.. ولحق يشربها ولا مات ونِفسُه فيها؟

يسألني مُتلهفًا، ولم يلحظ سُخريتي فأدركت مدخله تمامًا، فيُتابع :

– هي تفرق أباشا؟!

– اللّه! طبعاً .

تروقني لهفته فأصنع من نفسي مُفسرًا لأحداث أضع لها تفسيري الخاص فيقتنع بها شخص وتُريح قلبه أو تُرعبه، ممتعة تلك اللُعبة أليس كذلك؟ تابع لتتعلم!

يسألني واللهفة تملئ بؤبؤ عينيه، فأسحب نفسًا عميقًا من الشيشة وأخرجه بهدوء وأغمز قائلًا :

– لا مش بالساهل كدة.. هاتلي كوباية قهوة مظبوط بدل اللي ادلقت وتيجي تحكيلي وأرسيك .

– أوامرك!

يقولها بطريقة مُشجعة لاستكمال اللُعبة.. هكذا هي ألعاب الروح تُمتع من تشاء، وتقتل من تشاء، تأكد من اختيار الشخص المُناسب للعب .

***

إذن أنتَ في راحة الآن يا «عامر» .

***

أمام إصراره الذي لا ينتهِ، توجه إلى «النصبة» في ركن الغرفة القذرة التي يسكنها محمود وزوجته وطفله الرضيع ذوي الأشهر في الحياة، إذا طرأ في رأسه أمرًا لا يثنيه عنه آخر

مهما حدث...

- عايز كوباية قهوة من إيدك ياض يا محمود.

قالها الحاج إسماعيل أكبر تاجر «مية سُخنة»، مشهود لنفسه في صناعة الشاي والقهوة الفرنساوي والعثمانلي صاحبة الوش السليم البنية، يقف محمود وراء «سبرتايه»، فيُخرج «كنكة» ذهبية اللون أنيقة يضع بها المياه وهو ينظر إلى المقدار بداخلها، فيُنقص منها قطرات على أكثر من مرة، ثم يُزيد القهوة، والسكر المظبوط، فيضعها على نار «شَعرة»، يبتسم الحاج إسماعيل بجهد فتظهر سنتين أماميتين وهو يقول بوهن

- قهوجي ابن أبوك يا ابن الكلب.

ويضحك، يُعيد عليه محمود كلام الطبيب في المُستوصف الطبي عن القهوة والشاي والسجائر، فيقاطعه:

- اخرس يا ابن الكلب أنتَ وهوه.. ايه فهمكم أنتم يا بقر.

تنتهي بالكحة المتواصلة والأنفاس التي تختنق وصوت بكاء طفله يعلو، فتهدده أمه وهي تقول بهدوء لا يخلِ من خوف أن «ربنا يفتكره!» قائلة بهمس «بس ياله.. جدك تعبان» يُكمل الجد المريض «هاتيه يا بت»، تُبادل محمود النظر فيشير برأسه أن «ضعيه بجانبه»، فتستجيب لإمائته وتضعه بجانبه، فيهدءا كلاهما، تبتسم في وجهه وتتحرك في خطوات إلى محمود في ركن الغرفة وتهمس في أذنه قائلة:

- محمود! أبوك بيودع يا أخويا..
- هنعمل ايه يعني.. الموت علينا حق.. وكلنا هنموت.

- أنت ايه يا أخويا مابتحسش.. تلاقيك هتفرح لما أموت.. طبعًا عشان تخلص مني وتتجوز.. بس والنبي..

يُقاطعها محمود وهو يرفع «كنكة» القهوة عن «السبرتاية» و يحملها بإبهامه وسبابته إلى أن يملئ رُبع الكوب تقريبًا، ثم يُعيدها إلى الغليان مجددًا ويقول:

- أنتي فايقة يا ولية يا بت المهفوفة.. إدعيله ربنا يعفوا عنه ويريحه.
- يا رب يا أخويا.

يعود محمود إلى قهوته التي يصنعها بعناية كأنه يصنع من دمائه ترياق لأعز من جاء من صُلبه، يُكمل باقي الكوب التي يُحبها والده، يتقدم إليه ويده ترتعش، يُساعده على الجلوس فوق فرشته، يُشجعه بكلمات المواساة والتحفيز المعهودة «أنت لسه شباب أحج»، «يلا عشان نجوزك وتجبيلي عيل يدخلني الجيش»، «أنت بقيت زي الفل اللهم صل ع النبي أحج عيني باردة عليك» فيرد والده بجُمل على سجية عبارات ابنه «اخرس يا ابن الكلب وأنا هتجوز بعد أمك» فتستغلها زوجة محمود فتصطاد في المياه العِكرة وتُخبره «إنها لما تموت أكيد محمود ما هيصدق ويتجوز عليا يا عم إسماعيل» أو أخرى «ياله خلاص ربنا عايز أمانته ولازماً تتسلم مهما طال المعاد» والعبارة الأخيرة إذا ما طاله اليأس وتيقنه أنه آن الأوان ورآهم رؤى العين بلباسهم الأبيض المُبشر ووجهم المُستبشرة بالجنة وأنهارها ونعيمها الذي لا ينفذ .

يُقدم محمود الكوب من فم والده، فيرتشف الأخير رشفة بصوت قوي، فتخرج منه «آه» عميقة وهو يُعيد رأسه للخلف

ويستطعم مذاقها، ثم صمت الصمت الذي لا يتبعه حديث، إلا صرخة الطفل بجوار جده وعويل من زوجة محمود كادت تُسقط صورة جمال عبد الناصر البالية المُعلقة على الحائط المُشقق، يُسبل محمود عينين والده وهو يتمتم بما يحفظه من أدعية وعلها قصار السور، نظر إلى طفله ويظن بأنه ليس طفل عادي بل يحمل قدرة إلهية، لقد كشف لهم وفاة جده، جاءه خاطر مُبهج ابتسم له أن إسماعيل -طفله- سيصبح ذو شأن وجاه، ترى زوجته ابتسامة محمود، فترجع للوراء خطوات وتظن أنه أصيب بلوثة في عقله «إتهَف في نفوخه من حزنه على أبوه»، يضحك إسماعيل -الصغير- فيبتهج محمود ويُشير إلى زوجته أن تنظر لطفلهما هذه علامة ربانية عن أن المرحوم سوف يدخل الجنة فيُتابع:

- الأطفال بيشوفوا الملايكة يا ولية.

تبدل زوجته نظرها بينه وبين إسماعيل الذي يضحك ويُحرك يديه ورجليه في الهواء سعيدًا -وأولى حركاته التي يقوم بها وهو ابن الشهرين إلا أسبوع- وإسماعيل الذي أصبح بقدرة قادر «المرحوم»، تتوقع أن يقول لها زوجها «المهفوف» وليس هي كما يقول لها، أن يبني لوالده مقام في «مطرحهم» هذا فيجتذب المُريدين، فيجلس بإسماعيل الصغير جوار المقام يُحدث السائر والجالس والسامع والغير مبالي بمعجزات الصغير، وقد يكون مسيحًا يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن ربه كما أتى بعلامة وفاة جده...

- محمود! أنت جرالك إيه يا أخويا؟
- الواد اسماعيل الصُغير ده هيبقى مبروك يا ولية!

- يا أخويا وأنا أكره!
- بتاخديني على قدي يا بت المهفوفة.. طب على اليمين لأفكرك..

يصمت قليلاً قبل أن يكرر آخر كلمة بصوت خفيض تكاد تسمعه زوجته وهي تتقدم من إسماعيل «المرحوم»، فتحمل طفلها الذي لازال يضحك للفراغ ويداعب بقدميه ويديه فرحًا، يتقدم محمود خطوات تجاه الباب ويفتحه ثم ينظر للخلف حيث الإسماعيلين وزوجته، ويقول لها بصوت جاد ووجه عبوس:

- صوطي يا وليه!

***

سُرادق متواضع بكراسي نحاسية قاعدتها وظهرها أزرق باهت ومقطع، يتوافد للداخل المُعزيون، يقف محمود في أول الصف، يُسلم بحرارة تارة وبوهن أخرى، ثم يُقبل التقبيل ركن مهم من أركان العزاء، إذا سَلمت دون قبلتين -إن كانت علاقتك بقريب المرحوم سطحية- فعزاؤك باطل بالتأكيد طبقًا لشريعة تلك الفئة، أما في العلاقة القوية المترابطة التي يتخللها أحداث، مواقف، فهذا يُحتم القُبلات الأربع على الوجنتين وعناق وطبطبة الظهر وهمهمات بجانب الأذن، يتحرك محمود قليلاً في الشادر فيُسلم على كبار القوم -سنًا ومُقامًا- فيُلهب المُقرئ بكلمات محفوظة ولكن لها مفعول الحبة الزرقاء في الجسد الميت «اللّه يفتح عليك يا مولانا!»، تُقال بقوة ونفس واحد، فتُزيد من «سخونة» المُقرئ، فيقرأ و «يُلعلع» أكثر وأكثر، وقد يكون مغزاها «اختم

وابـدء» إن كـان العـزاء «ثقيـلاً» أي كـثـير المُعزيـن.

***

تنتهـي الليلة «الجميلة» على حـد قولهم، أن «المرحوم ليلته جميلـة اللّه يرحمـه» فيجلـس محمـود بينمـا يمـارس عُمـال الفِراشـة طقوسـهم المُعتادة من الفك، على كُرسـي ويُشعل سـيجارة، يأخذ نفس عميق فيتحسس دمعة تتجمع فتكاد تسـقط مـن عينـه، فيمسـحها بظهر يـده وهو يدير رأسـه في إتجـاه آخـر بعيد عن العُمـال، أبـداً لم تُدمعه سـيجارة، فيقـول بصوت مسـموع:

– اللّه يرحمك يا أبا!

يسـحب أحـد من أبنـاء «الحِتـة» كرسـي و يجلس جـواره، وهو لا يـزال ينظر بعيدًا، فيُربت على فخذه وهو يُخرج سيجارة قائلًا:

– وحد اللّه في قلبك يا محمود.

يتعجـب محمـود حينمـا يسـمع صوتـه وطريقتـه في الحديـث فهي تُشـبه طريقته نفسـه كثيرًا، فيتابـع بصوت مخنوق يبتلعه بكاء مكتوم فلا يكاد يُفسـر ماذا يقول، بالتأكيـد تُـدرك رده «لا إلـه الا اللّه»، يكـرر رده بوضـوح أكثر وتنهيدة لأعلى السماء ونظرة مُعلقة بملائكة لا تُرى ورحمة منتظرة إشـارتها تريحه بأن أباك قد تغمده ربه بواسـع رحمتـه وهـا هو الآن يُجالـس الصالحون، اسـتنادًا لكل الخير الـذي سـواه طيلة عمره، يُخرجـه صوته- أو بالأحـرى- الصوت الذي يشـبهه لدرجة التمـام بنبرة جادة:

– ادعيله بالرحمة ماتعذبوش في تُربته يا أخي!

جملته أخرجته عن هدوءه فينظر لصاحب الصوت بوجه غاضب ويستعد لبخ السم في وجهه، فتُخرسه الصدمة!

يراه! نعم يرى محمود آخر! لا.. لا تقل آخر.. فهو يجلس تمامًا أمام نفسه، قميصه المشجر الواسع وبنطاله القماش، ذقنه الغير حليق، شعره المجعد، ينظر لنفسه في عينيه فيحرك يديه ويضعها على وجهه ظنًا أنه أمام مرآة، فلا تبادله المرآة- محمود الجالس أمامه- حركاته، يجحظ فتسقط سيجارته من فمه المفتوح وينحبس الحديث في حلقه، يتذكر إسماعيل الصغير في تلك اللحظة تحديدًا، يبتسم محمود الآخر وتسهيلًا سوف نسميه «مثيله» كي نفرق بين محمود الحقيقي و «مثيله» ويخرج سيجارة يقدمها لمحمود ويبتسم نصف ابتسامة وبنبرة ثقة يقول:

– ما قعدتش مع نفسك قبل كدة يا أبو الأحناف!

ترتعش يد محمود وهو يمسك بالسيجارة، يحرك رأسه يمنة ويسرة ويقول بصوت مكتوم:

– اللّه يرحمك يابا.

فيتابع مثيله:

– أيوة كدة ادعيله.

يحل الصمت ضيف ثالث فلا صوت يعلو على أعمدة الفراشة الخشبية التي تسقط أرضًا وأحيانًا صياح العُمال،

– ماكنتش أعرف إنك بتخاف من الموت يا محمود!

نطقها «مثيله» بشئ من السخرية التي بالفعل استفزت محمود فرد بغضب وصوت عالي فيلفت انتباه العُمال :

- أنا مابخافش من الموت! مابخافش!

يظل «مثيله» بابتسامته المستفزة ونظرته لمحمود كأنه رغم سخافته التي يشعر بها محمود يُشجعه كي يقول المزيد، فيستغلها ويتابع ..

- مابخافش.. بس زعلان على أبويا يا أخي! أنت ايه مابتحسش!
- إزاي! بحس طبعًا.. بس مش أنت برضك اللي بتقول الموت راحة والراجل يرتاح!
- مهما كان اللي بنقوله.. بس برضه بنزعل! احنا بني آدمين يا أخي.. بني آدمين!

يتحدث الصمت مجددًا بينما يقاطعه محمود وهو يُردد «بني آدمين يا أخي.. بني آدمين» ويعود فيبكي بشكل هيستيري والدموع المحبوسة أطلق سراحها بدون عفو دولي أو تصريح!

يأخذ آخر نفس من السيجارة التي نسى أنها في يده وينظر إلى العامل الواقف على السُلم العالي ويكمل:

- آخر حاجة طلبها مني.. كوباية قهوة.. هو اللي معلمني الصنعة، كان أسطى مَشَاريب بريمو وعهد اللّه!»

ينظر للكرسي بجواره فلم يجده ـ «مثيله» ـ الذي تحدث إليه منذ لحظات، يسمع همس من وراء ظهره:

- ربنا يرحمه و يحنن عليك ويباركلك في إسماعيل الصُغير.

ينظر فيجده العامل الواقف على السُلم الطويل وهو يُربت

على كتفه ويستأذنه في الكرسي الجالس عليه، يقوم محمود فيسير كطفل يأخذ خطواته الأولى بهدوء وحذر، ينظر العامل لزميله ويرفع كتفيه ويقول له :

- الراجل كان قاعد بيكلم الكرسي الفاضي جنبه!
- ربنا يصبره بقي لأحسن ده شكله لسع!

***

أتعجب من حديثه عن والده وما حدث بعد العزاء، أخبرته أنها خيالات وتهيؤات «بيروحوا فيها لدكاترة ويدفعوا ألفات في علاج ومهدءات» وأنه بطل على قدرة تخطي كل هذه العقبات والأزمات حتى يصل لتلك الدرجة الآن، هذا - بالطبع - جعله يقول بأنه «بيستحمل» وأضاف :

- اللي شايله مش شوية ده القلب مليان وجع والله أباشا، بس ربك بينسي ما هي دي نعمة برضه، النسيان نعمة كبيرة

وافقته الرأي مما جعله يحرك رأسه أن «صح تمام وهو أنت اللي هتقولي!» فقَبل يمينه وجهًا وظهر ونظر إلى السماء قائلًا :

- الحمد لله يارب والله

توقفت أمام عبارته الأخيرة فسألته بكلمات سريعة تكاد تتصل حروفها ببعض :

- هو ازاي الحمد لله يارب والله!
- ايه أباشا أنت هتكفر ولا ايه!

قالها بإبتسامة سخرية واضحة تمامًا على وجهه، فتابعت

بحدة وقوة:

- أنت اللي بتقول الحمد لله يارب والله تقدر تفسرلي اللي بتقوله؟
- بشكر ربنا لا إله الا الله!
- تشكره تقوم تقول الحمد لله.. لكن الحمد لله يارب مع كدة إن في إله تاني معاه بتشكره! وبعدها بتقول والله، يعني بترجع تاني لربنا!

فضحكت أنا بصوت عالي مقهقه متقطع ظننت نفسي زعيم عصابة مافيا وجد ضالته في ذلة أحد عملائه، فيعود محمود لوجه بلا ملامح فيرد ..

- تصدق معاك حق أباشا!

هكذا إذا ثقتك بما تقول حتى وإن تك خطأ كفيلة بتقليل أو على الأقل هز ثقة مُحدثك، اضرب في معتقده بطريقة غريبة عليه، لم يعتدها.

أخبرته أيضًا أن «الحاج» مات وهو راضي عنه، حيث شرب من صنع يده آخر ما في دنياه وحياته، ولا تنس أنها صنيعة يدك التي هي في الأساس «عَلام الحاج ذات نفسه!» ثم أضفت «أنت ريحت أبوك أحودا» استخدت الألف «أ» بدل من ياء المخاطبة مثلما يتحدث معي، زاد كلامي من سعادته وراحته ودعاءه لي بالستر والصحة وطول العمر، تذكرت أمر هام، كيف أغفلته! فسألته محمود بلهفة:

- الواد إسماعيل الصغير بقى وَلي؟

يضحك هو ضحك متواصل ويمسك بطنه ثم يهدئ قبل أن يبدء وصلة ضحك جديدة ثم عاد للحديث ..

- ولي ايه بس أباشا ابن الكلب طالع بتاع تعليم ومدارس وخارب بيتي! بتحايل عليه يتعلمله صنعة وهو دماغه راكبة في المدارس، بس حلو يعني الحق ينقال برضك .

دعيت له ولإسماعيل الصغير ابن الكلب الذي طلع بتاع تعليم ومدارس وخارب بيته، أردت أن أضيف أنه سيصبح هذا الولي حقًا يمكن ليس بالشكل الذي يعرفه محمود، حين هممت بفتح فمي لأقول خاطرتي هذه، وجدتني تلقائيًا أنظر تحت قدمي وأقطع لساني.

***

مللت الجلوس وكثرة «الرغي» الذي لم أعتد كثرته مثل الليلة، حتى أني مللت تدخين «المعسل» رغم شعوري بأني ولدت في مقهى أو أن أبي قهوجي ابن صبي شيشة، سلمت على «محمود» طبعاً، ودعني بلهجته التي لا تتغير مع كافة الأشخاص حينما يُسلم:

- شرفت أباشا، ألف سلامة أباشا.

السير هو الحل،الحل؟! ماذا يعني الحل؟!

بئسًا على من زرع في نفوسنا تلك النبتة التي أقنعونا بقدسيتها بأن هناك حلول، لا يوجد ما يُسمى كذلك، جميعًا مُسكنات موضعية مؤقتة.

وإن كان كذلك.. هل يوجد حل واحد؟ لا طبعًا يا مغفل

هنالك الكثير والكثير، ملئ المحيطات وبعرض السماوات وأعماق الأرض، وكلٌ له صحته وخطأه، فإن أردت موافقتي على رأيي- ليس لأنه صحيح أو صادق- ولكن لمجرد أنه رأيك في الأساس فسوف تخلق ما لا نعلم جميعًا من أدلة تُبرهن صدق حلك وهذا كي نُثني على عقليتك الأينشتاينية الفذة .

أما على صعيد الرفض، فسيكون هناك أكثر بعدد حبات الرمال، وأنفاس الأحياء كلهم بخطأي وصدقك، فتصل لإرتدادي عن دين معتقداتك وأفكارك ونبذي خارج حدودك.

أما عن الحياد.. فهنالك درك مخصص للحياديين في الجحيم كما قال «دانتي» في كوميديته الإلهية .

لا يوجد حل.. بل متاهة ندخل منذ أول أزمة نُجبر على دخولها- حتى إذا خُيل إليك حريتك الكاملة في دخولها- فتجد نفسك تدور في فُلك اللانهائية التي ما هي إلا متاهة أخرى، إذن فالسير هو المتاهة المناسبة الآن!

هكذا أدق.

نوستالجيا العمر (١)

كلما اشتد بك الحاضر.. تهرب من موتك إلى ما ضيك..

المشهود عني وسط زملاء فصلي بأني الأكثر هدوءاً، أجيب بإختصار عن سؤال يسأله المُدرس، إذا طلب مني المشاركة، ليس لقلة استذكاري أو إهتمامي بدروسي، على العكس تماماً، لكن لا أجد متعة في الظهور ورفع يدي بشكل مُبالغ فيه كي يمُن المدرس على بالإجابة، حتي في حصص الألعاب، لا أحب لعب الكرة، لهذا لا أشارك كثيراً في جمع «الزبالة» كما يقولوها مدرس الألعاب:

- تنضفوا الحوش من القرف بتاعكم وبعدها تلعبوا.. وكل ما تخلصوا أسرع يبقي قدامكم وقت أكتر.

أتحرك بخطوات بطيئة هادئة، فيتضايق مني زملائي بحجة أن لا مصلحة لي في الإنتهاء؛ لأني لا أشاركهم،

أستغل كافة الفرص الممكنة؛ كي أكون بجوارها، «نهلة» زميلتي وابنة عمو حسن زميل والدي وصديقه، تجمعهم علاقة قوية قديمة ترجع إلى «جدود الجدود» كما سمعتها منهم وهم يقولونها دائما كلما اجتمعنا، فما يزيد من صمتي إلا صمت وإبتسامة هادئة، أما عن «نهلة» فتزيد وجهها الأبيض الذي يشبه القمر المُكتمل هكذا تقول عنها جدتي «صفية» حينما أوصلتني إلى المدرسة يوماً عند سفر

أبـي إلى مأموريـة في مدينة لا أتذكر اسمهـا الغريب، عينيها عيني هندية وشـعرها الحريري البني وإبتسامتها البريئة التي ما ترسمها فتظهر أسـنانها البيضاء المصفوفة، ضغطت يد جدتي قائلاً بلهفة:

- تيتة، نهلة أهي اللي هناك دي.
- طب اجري يلا الحقها ما تسيبهاش تمشي لوحدها.

شجعتني كي أجري رغم حملي حقيبة ظهري التي تحتضن كتب حصصي المدرسية ولكل كتاب كشكول أو إثنين وأحياناً ثلاثة في حالة مادة اللغة العربية أو العربي كما نقول، أعدو وسط الزحام الصباحي لأصل إليها، لماذا لم نولد طوال القامة رغم صغرنا! خطواتي صغيرة بطيئة رغم محاولاتي وسط مرور كائنات عملاقة كأني حشرة صغيرة تداهمها مخاطر السحق من قدم كبيرة، ساق طويلة، يد مندفعة تتحرك مع حركة جسمها.

اعطتني جدتي «بونبون» لي ولنهلة رغم رفضها في الصباح بدعو أن أسناني في حالة تبدل الآن لهذا يجب أن أهتم بصحتها ولا داعي لكي أزيد آلام التسوس بسكر أكثر، أصل إلى «نهلة» وأنا أنادي عليها وسط عدوي وحقيبتي التي تهتز يمنة ويسرة وأنفاسي المتسارعة، تنظر إلى الوراء فتبتسم تملئ نفسي سعادة لا أعرف لها وصف قد تكون بنفس اتساع السماء والبحر وقدر فتح ذراعيَ وأنا أعبر لجدتي بحبي لها ..

- ازيك!
- كويس وانتِ عاملة ايه؟!

وصلت جدتي إلينا بحركتها البطيئة التي أحبها، مبتسمة بوجه ممتلئ من أثر تجاعيد الشيب وعينين حولهما انتفاخ تخبرني أنه من الضغط التي تأخذ له علاج يومي مع السكر والقلب والكوليسترول، قصيرة ورغم ذلك تحافظ على وزنها، تبتسم لنهلة فتزداد فرحتي ..

- أهلاً أهلاً بالقمر.. إزيك يا نهلة ما شاء الله إيه القمر ده!

قالتها تيتة بحنانها المعتاد الذي يفيض على الجميع حتي من قد يمر أو يجلس بجوارها وهي تُسلم على «نهلة» وتقبلها في جبهتها فداعبت «قصتها» الناعمة التي تأخذ شكل نصف دائرة لتنتهي قبل عينيها الجميلتين،

- إزي حضرتك يا تيتة، شكراً!

تابعت نهلة بخجل تجلى في إحمرار وجنتيها البيضاوين الناعمين ونظرة إلى قدميها وأنا أقف مُتابعاً أتمني أن تتوقف الساعة التي أرتديها في يسأري علّ اللقاء يدوم إلى الأبد، ربتت جدتي على ظهري قائلة:

- يلا بقي إمسك إيد نهلة وخلوا بالكم من بعض .

لوحت بكفها مودعة وأنا أمسك بيد نهلة فأشعر بحرارة خجل وكأن كل الكائنات أعاقت سيري منذ قليل توقفت لا الزمن، تنظر لنا، وتحسدني، وتبتسم لي قائلة «يا بختك»، أصابعنا الصغيرة شكلت قبضة كبيرة و نحن ننظر لبعضنا البعض ونبتسم سائرين في اتجاه بوابة المدرسة التي تحولت في عيني إلى بوابة للجنة التي تجري فيها الأنهار الصافية والأشجار ذات الأوراق الخضراء والوورود وجميعهم في إستقبالنا.. جدتي

صفيـة.. أمـي التي لم أراها ويقولون لي أنهـا تراني وتتابعني من السـماء فهي عند اللّه الذي أحب لها أن تسـكن الجنة، فالجنة للصالحين وبالتأكيد أمي صالحة .

تُخرجـني «نهلة» من خيالاتي وهـي تشـدني وراءها قائلة بسرعة:

– إتأخرنا يلا.. أنت سرحان في إيه!

أعـدو معها ليس لأننا تأخرنا بل لتظـل قبضتنا القوية أمام الجميـع، نعبر البوابـة عدواً أمام البواب عم «سـلامة» بجلبابه الرمـادي الـذي لا يغـيره كـثيراً ووجهـه الثابت الـذي لا يتغير أيضاً، فنلحق الطابور منذ بدايته لأن نهلة لها فقرة في الإذاعة المدرسية .

❊❊❊

نوستالجيا العمر (٢)

القبضة القوية المبهجة ما هي إلا إشارة لوجع قادم..

جرس الفسحة ينطلق لتبدأ مرحلة ولي فرصة كي أقترب منها مرة أخرى، أثني على فقرتها الصباحية فتبتسم وتسألني لماذا لم أشارك معاها، فأجيبها في نفسي أني أشارك بكل ما أوتيت من نفس وبعدد كلمات معلمينا في حصصنا اليومية.

تستأذنني لتذهب إلى المكتبة، تسير أمامي هي وزميلتها خطوات ويقترب منها عامر ويحدثها وهو يضحك بطوله الفارع فلا تنظر له، يقترب مجددًا بعد أن أسرعت في الخطا، فتبعده بدفعة من يمناها ويعلو صوتها ..

أتقدم تجاه عامر دون أن أدري ماذا يحركني بسرعة هاتفاً بصوتٍ عالٍ غاضب :

- عامر! في ايه؟؟ مالك بيها!

فتنظر لي قبله، أراها تستنجد بي، أو هكذا أظن! الفارس ذو رداء البطولة، وعامر بحاجبين مرتفعين وابتسامة سخيفة يكمل :

- في محشي.. أديلك!

يتابع بضحكة عالية تزيد من سخافته واستفزازه فأتابع

أنا أيضًا :

- لا ده انتَ اللي تاكله .
- يلا يا حنين شوف انتَ رايح فين .
- ابعد عنها .
- ولو ما بعدتش هتعمل ايه؟!

نتبادل نظرات التحدي في صمت إلا أن نطقت فورًا بعد أن توقفنا كمقاتلين مكسيكيين على وشك سحب مسدسهم وإطلاق النار ..

- هضربك يا عامر!

ضحك عامر نفس ضحكته المجلجلة السخيفة

- أنت تضربني أنا! طب وريني كدة يا عم الشجاع!

أتقدم نحوه بعد أن ضمنا مجموعة من المتفرجين في شبه دائرة، شلة عامر والزملاء الأكبر والأصغر الذين تنبؤا بالمعركة ونهلة لا تزال تنظر، أعتقد أنها حذرتني بعينيها الواسعتين الصافيتين، أو هكذا ظننت ..

أصفع عامر على وجهه وأنا أطير في الهواء كي أصل إليه، يشتاط غضبًا مما حدث، فينهال عليّ بالركلات في القدم والمعدة، أتخلص من قبضته لرقبتي ووجهي محمرًا غاضبًا وأصيح بكلمات غير مفهومة تندرج تحت مسمى السباب، ما قدرني الله عليه حينما لا أجد الفرصة السانحة لتسديد لكمة أو دفعة .

أجري سريعًا فألتقط طوبة لأرميه بها فيتفاداها، يعدو

نحوي بسرعة فأعدو أسرع، معركة غير عادلة، ساقاه طويلة وجسمي صغير، يجذبني من ياقتي ويلقيني كورقة مقطوعة من كشكول تلقى في صندوق القمامة خلف باب الفصل القديم، يصطدم وجهي برصيف فينجرح وجهي وتظهر دمائي ودموعي التي ما تمنيت ظهورهما، فتتقدم نهلة بوجه قلق مذعور نحوي وهي تسأل نفس السؤال بصوت متلهف «أنت كويس!» أرى عامر بجسده الطويل يقترب مني في قلق لم أعهده ويحملني عدوًا إلى الحمام كي أغسل وجهي، هل خوفه من العقاب حركه أم شعوره بضعفي وقلة حيلتي؟

آخر ما أذكره دخول أستاذ ماهر ساحبًا إيانا إلى حجرة الناظر، وسط تعجب الكثير مما فعلت وحدث!

***

نوستالجيا العمر (٣)

انتهى اليوم الدراسي! أقسى اللحظات التي أمر بها، يتلهف الجميع بصوت عالي وحركة سريعة لجمع الكتب والأقلام وحمل الحقيبة والخروج عدوًا صائحين «هيبيييييييه.. مرواااااااح»، بينما أنا أظل ساكنًا علَّني أجد دقيقة بقرب نهلة، يصيح عامر وسطهم لدرجة تميزك لصوته ليس لأنه عالي فقط بل لأنه الأطول، يتقدم نحوي ويديه تتكلم أن «خلص يا عم» وأنا أتبرم ووجهي ممتعض، تهم نهلة بالخروج من الفصل حينما تلقي نظرة أخيرة على الفصل فتراني وعامر ..

- يلا انتوا مش عايزين تروحوا؟!

يرد عامر سريعًا ..

- ما أنا بقوله كدا.. يلا يا عم.. استني يا نهلة نمشي سوا.

قالها وختم آخر كلمتين ناظرًا لي ويغمز، وتابعت نهلة :

- طب يلا .

أتحول من سلحفاة ترتدي مريلة إلى فهد وجد ضالته، ينظر لي عامر بحاجبين مرفوعين مذهولين ولم يفوت اللحظة بدون تعليقه ..

- هو أنت بقيت سريع ليه من بعد ما نهلة قالت إنها هتروح معانا!

تضحك نهلة وتنظر إلى قدميها وتلمس أنفها بحركة أنثوية لا إرادية يفعلها الجسد في لحظات الخجل ..

وأنا أنظر له بغضب ووجه محمر، فيكمل مربتًا على كتفي .

- طب يلا اسبقكم أنا أشتري حاجة من الكانتين اللي قفل.

ننظر له لحظات وبعدها ننفجر ضاحكين وهو يخرج من الفصل ملوحًا «باي باي».

***

obeikan.com

نوستالجيا العمر (٤)

«وَبَعْدَ ذلِكَ انْطَرَحَ عَلَى فِرَاشِهِ، وَأَحَسَ مِنْ نَفْسِهِ بِالْمَوْتِ»

سفر المكابيين الأول ٦:١

يخرجون من بوابة المدرسة الضخمة كأنهم خارجين من فم وحش عملاق، يتقدم عامر للأمام كي يتفادى من ضرباتي التي حطمت الهواء ونهلة بنفس ضحكتها التي تحاول تُخفيها بيدها، تتردد ضحكاتنا إلى أن تسكن فنلتقط أنفاسنا تدريجياً، أنظر حولي أبحث عنها ولا أجدها ..

- أومال تيتة ماجتش تاخدنا ليه؟!
- تعالوا نروح احنا طيب!
- أنا مستغرب ازاي ماتجيش!

ما أن وصلت، توقعت أن أرى جمع الجيران والمارة في مدخل عمارتنا.. كما أرى تماماً في الأفلام حينما يكون هناك أزمة، خابت توقعاتي، أصعد بهدوء درجات السُلم وأنا أدندن بموسيقى خاصتي، ألحاني الشخصية الغير منضبطة ولكني أحبها .

أضرب الجرس المُفزع الذي أكرهه وأنا أقف على أطراف أصابعي فارداً ذراعي عن آخره، يفتح عمو الباب بوجه مُحمراً وعينين دامعتين،

- مالك يا عمو؟!
- تعالا يا حبيبي مفيش حاجة.
- أومال حضرتك بتعيط ليه؟ وتيتة فين؟

أتحرك من يد عمو إلى الصالة ماراً بالكنبة وكُرسيين يقابلونها وأنادي «تيتة!» ولا أجد مُجيب، فأعيدها، لا جديد أسمعه، إلى أن وصلت لغرفتها بعد غرفتين أخريين.

باب غرفتها مفتوح دائماً، مثل قلبها تماماً الواسع كالبحر الذي أراه في التلفزيون، «تيتة!» أجدها نائمة في سريرها ووجهها مُغطي، أضحك حتي في عز الظهر تُغطي وجهك!

- يا تيتة احنا الضهر وبرضه بتغطي وشك! الجو حر أصلاً ..

أنتظر صوتها المُتفاعل كعادته، فتستيقظ لنتحدث كأنها لم تك نائمة،

- يا تيتة اصحي بقى!

يدخل عمو يحتضنني ويُربت على ظهري وأنا في وضع جمود، ذراعيَ بين جانبيَ، لم يصدر عني ولا حركة واحدة، أشعر فقط بأن هناك من يجذبني من الداخلي إلى عمق أكثر رُعباً وخوفاً، فيتكلم عمو بصوت مبحوح باكي :

- تيتة راحت لربنا يا حبيبي.. راحت لربنا ..

يزداد نحيبه مع «راحت لربنا» الثانية، وجه عمو غريب وهو حزين، تُرى أنا أيضاً أصبح هكذا عندما أبكي؟ دموع كثيرة ولا أدري هل لأني توقعت أمراً يُشبه هذا؟ أم لأني لم أفهم معنى جملة عمو التي أعادها مرتين؟ أم لأن تيتة لا

تتكلم معي؟

يتركني عمو ليجلس بجوار تيتة ويظل يبكي وهو يقترب منها، أتقدم منها وأوقفه لأجلس أنا مكانه، أزيح الغطاء عنها فأراها نائمة، أبتسم بخبث وأنظر له نظرة الانتصار أني «عرفت أنكم عاملين فيا مقلب!» ثم أتابع مُخاطباً تيتة في مرح وخط من الدموح قد جف على وجنتي:

- وبعدين بقي أنا زعلان منك يا تيتة.. عشان استنيتك قدام المدرسة زي كل يوم وأنتِ ماجيتيش! كنت مستنيك أنا وعامر ونهلة كمان.

أضع يدي على يدها لأجدها باردة صلبة بيضاء كأنها بلا دم، ليست دافئة، لينة وناعمة كما اعتدتها، أتابع ..

- تيتة بلاش المقالب دي أنا قفشتك أساساً من ساعة ما دخلت ..

لا تُحرك ساكناً فأتابع بدوري :

- صحيح يا تيتة عمو قالي انك روحتي لربنا.. أنتي روحتي ازاي يا تيتة؟! وبعدين المفروض تاخديني معاكي زي ما بنروح كل حتة سوا.. صح؟! صح؟!

- أنتِ ما بتردیش علیا لیه؟! أنا زعلتك في حاجة؟!

أنظر إلى عمو ولا يزال يبكي وأسأله وأنا أربت على كفه :

- هي تيتة ما بتتكلمش معايا ليه؟ هي بتصحى على طول

- ياحبيبي تيتة راحت لربنا..

- يعني ايه!

– .....

– طب ليه تروح لربنا.. ما تفضل معايا وأنا أعملها كل اللي هي عايزاه.. ربنا بيحبني هي بتقولي كدة.. هطلب منه أنها تفضل هنا معايا وماتروحش عنده!

لا تُزيد كلماتي في نفس عمو إلا دموعاً أكثر، وأسرع، يحتضنني بقوة كأنه يريد اخفائي ويُقبلني في رأسي .

أبتعد عنه بوجه غاضب، أشعر بأني أدور حول نفسي أو الغرفة تدور بسرعة.. نفسي أبطئ من ذي قبل.. أكاد لا أشعر به.. أقفز في الهواء كي أسقط بقدميَ على الأرض فتكُف الغرفة عن دورانها، فأسقط وأتقئ سندويتشات تيتة التي تُعدها لي كل يوم، حتي الطعام سوف يلحق بكِ إلى «ربنا يا تيتة» أتصبب عرقاً، دوار.. بحر أغرق فيه وأنا واقف.. هواء أقاوم رغبة في النعاس وعيني تُغلق على نفسها.. لا أعرف جدياً ما أمُر به.. فلم أصادفه قبلاً،

– تيتة!

أقولها بفرحة وأنا أراها جميلة بعبائتها المُعتادة وتلك المرة بلوناً أبيضاً فزادتها جمالاً على جمالها، تقترب مني فتحتضنني وتُقبلني وأنا أحتضنها بدوري فتملئ وجهي ابتسامة تُحبها .

– أنت بقيت راجل كبير صح؟!

قالتها وهي جالس على أقدامها وتنظر إلى عيني مُباشرة، فأومئ برأسي أن «طبعاً» فتُكمل بسعادة تتجلي في نظرتها لي :

– يبقى تعتمد على نفسك وتبدأ بقى حياة الكُبار.. مش

بالكلام وبس .

- طب وأنتِ يا تيتة.. رايحة فين وسايباني؟ صحيح اللي عمو كان بيقوله انك روحتي لربنا لما ماردتيش عليا .
- كُلنا هنروح لربنا.. وربنا بيحبنا وعايزنا معاه..
- طب أروح معاكي لربنا.. ومش هعمل حاجة تزعله مني!
- بعد الشر عنك يا حبيبي.. بعد الشر .

تحتضنني أكثر وتُقبلني في رأسي وجبهتي وتُكمل وهي ممسكة بكتفيَ ..

- أوعدني أنك تاكل كويس.. وتخلي بالك من نفسك.
- أنا مش هسيبك على فكرة.. هشوفك على طول وأكلمك..
- وأنت كمان كلمني كل ما تحس إنك محتاجني..
- حاضر يا تيتة.. بس ممكن طلب واحد بس .
- طبعًا يا حبيبي.. اطلب واتمنى .
- ابقي تعالي زوريني.. عشان هتوحشيني أوي! زوريني ولو مرة واحدة كل يوم!

تبتسم وهي تحضنني وتُقبلني وتقول بصوت مخنوق :

- حاضر ياحبيبي.. هزورك .

تصمت قليلاً وهي تمسح عيونها من الدموع ثم تُكمل :

- خُد.. خلي السلسلة دي معاك.. دي كانت هدية جدك ليا من سنين كتير.. حافظ عليها!

- حاضر يا تيتة.

تتحسس وجنتي بحنانٍ وهي تقف استعداداً للرحيل فأحاول ابقاء الحديث قائلاً :

- تيتة؟!
- نعم يا روح تيتة.
- أنا بحبك أوي!

***

obeikan.com

فاروق

«أُشْهِدُ عليكُمُ اليوْمَ السَمَاءَ وَالأَرْضَ، قَدْ جَعَلْتُ قُدَامَكَ الْحَيَاةَ وَالْمَوْتَ، الْبَرَكَةَ وَاللَعْنَةَ، فَاخْتَرِ الْحَيَاةَ لِكَيْ تَحْيَا أَنْتَ وَنَسْلُكَ»

سفر التثنية ١٩:٣٠

حينما تتكاتف عليك الأحزان، فعليك بالسير واستنشاق الهواء عليل كان أو ملوث، أتعجب من يقولوا حينما نمر بأزمة حزن عبارات من شاكلة «ما تزعلش نفسك» أو «حاول تنسى وتفك»، لماذا؟ مُحمل صدري بالوجع فكيف لي بأن أطرد كافة سكاني من منازلهم التي أنزِلوا بها.

قمة الأنانية أن تختار متي تشعر بالسعادة ولا تحسب مقدار الحزن الذي عليك المرور به، لهذا أتنفس ألم وأتحسر على ما حدث.

أمر على بائع حمص الشام «الحلبسة» كما هو شائع، طفل بلغ قبل أوانه أسمر أو هكذا تخيلته متوسط الطول، نحيف يقف وراء عربة مُلونة ومزينة بالأضواء والألوان ولمبة صفراء هي الأساس في المقدمة.

أعود إليه لأشاركه أحزاني، سمعت ذات مرة بأنك

تستريح عندما تحكي ما يؤرق صدرك، فتنجلي غُمتك وتصيب المُستمع إليك لعنتك، قد تظنها أنانية، قد تكون كذلك ..

- عايز كوباية لو سمحت .
- عيني يا رايق .

رايق! أصبت أنا الشخص «الرايق» حتي النخاع، لهذا سوف أشركك روقاني أكوابًا!

- شطة يا رايق .
- أه يا رايق، حاجة تموت الله يباركلك!

يضحك ظناً منه أنها طُرفة، نعمة أن كلمتك قد تُفهم بأكثر من معنى، إلا الموت معناه واحد، يُتابع فينتشلني من تفكيري .

- ليه كدة الدنيا حلوة .

لماذا لم يقل يا «رايق»؟

- حلوة ف ايه يا عم، صاحبي وأخويا مات فين الحلاوة بقي !
- الله يرحمه ويصبرك، بس مش أحسن من إن لا قدر الله يعني.. أبوك وأمك ربنا يفتكرهم بدري وتتلطم أنت من بيت لـ «خن» لرصيف للتاني لمقلب زبالة لأشكال لامؤاخذة بنت وسخة وأنت كل ده حتة لحمة حمرا زي ما بيقولوا في الأفلام!

يُنهي عبارته بضحكة فهمتها سُخرية، لم أدرِ بقصده، يناولني كوبًا صغيرًا مثل المشروبات الساخنة سريعة التحضير يتصاعد منها الدخان، استفزني رده كي أفهم

أكثر، ومن جهة أخرى فرصة لتغيير الجو بدلًا من التجهم والسير على غير هُدى،

- طب ازاي حلوة بقي بعد اللي أنت قولته ده!
- حلوة عشان بنعافر في أمها يا نجم، أديها بتخبط فينا بس احنا كمان ما بنفوتش بنخبط ونزقوا فيها واللي بيعيش مننا بيكمل.
- طب واللي يموت؟!
- ربنا يتولاه بقى!

أظن بأن آخر رد هو ختام الحديث، فكرت قليلًا، إذا ما أعطيته حسابه فسينتهي اللقاء، أحاول فتح الكلام مرة أخرى :

- انتَ منين أصلًا واسمك ايه ؟
- فاروق يا باشا، محسوبك فاروق، منين مش عارف لما بدأت أوعى لقيتني هنا .
- عاشت الأسامي يا فاروق، طب ولفيت فين على كدة أنت شكلك حكاية!

من يراني الآن أتحدث وكأني لم أفتقد توأمي منذ ساعات، أعطيه ورقة بـ ٢٠ جنيهًا كي يظل حبل الود موصول، هذا الوقت من العام يتميز بالركود وبالتأكيد سوف يسألني عن «فكة يا باشا، معاكشي؟» وأهز رأسي بأن «لا واللّه، شوف فكة.. براحتك» فيهز رأسه مرة أخرى دون جدوى إلى أن يقول فهمت قصدك، أو يُخمن.

- أنا يا باشا اتولدت في الشرقية ما لحيقتش أتهنى بأبويا وأمي وربنا افتكرهم الاتنين في حادثة، الله أعلم الكلام ده صح ولا غلط ولا هما أصلاً أهلي ولا أنا ابن ناس تانية، أهل البلد اللي كنا فيها، كل واحد منهم ياخدني شوية لحد ما بدأت أكبر وبقيت ٨ سنين كان كل بنات البلد اخواتي في الرضاعة .

أضحك على ضحكته مع آخر تعقيب، أراد أن يُلمح لأمر شممته من نظرته وغمزة عينه وهذا ما أضحكني أكثر بصوت مقهقه وكأنه «إيفيه» غير متوقع.

- خدني عم ممدوح أشتغل معاه في دكانه، وكنت عيل حِركْ من وأني صغير، أصاحب طوب الأرض واللي يجي عليا بكَلمة أخد حقي تالت ومتلت، بيت أهلي.. ولاد الحرام أخدوه وضع يد من قبل ما أفهم يعني ايه وضع يد ودكان عم ممدوح.. المتوى بتاعي، لحد ما قررت أهج وأعيش زي ما أنت شايف وسيبت عم ممدوح بالأصول قولتله اني مسافر وسايب البلد، بس ما صدقنيش!

- وممدوح سابك عادي كدة!

تابعني مباشرة بقوله «عم ممدوح» كأنه يصصح لي القول، أضاف أن عم ممدوح هو الشخص القائم مقام والديه، رغم أنه لم يُسكنه بيته ولكن مجرد محل يبقيه بين الفئران والحشرات والظلام وعفاريت الليل، هذا موت في حد ذاته!

- طب ماتحكيلي أنت وصلت هنا إزاي، وقولت لعم ممدوح إيه؟!

شددت على «عم» كوسيلة تقرب فتشجعه على الحديث ..

- أحكيلك يا رايق.. ألا الكريم اسمه ايه؟!

أنظر له وأنا أتناول الكوب من يده فأشعر بحرارته، لم أعلم هل هي حرارة الشطة أم خُيلَ إلىَ أنها انتعشت! أو أكون أنا من انتعش،

- أسماء سميتموها أنتم وآبائكم يا روقة !

ينظر لي فيما معناه.. «بتقول ايه يا رايق؟!» هززت رأسي مُشجعًا، صانعًا بيدي حركات متتالية أن «كمل كمل ما تاخدشي في بالك» تاركًا نفسي لحديثه والهواء البارد الذي أحبه كأنه يتشارك معنا عذابنا.. إن كان عذابًا!

❊ ❊ ❊

في ليلة مُظلمة، لم تختلف عن سابقتها أو ما ستلحق بها، شديدة الظلام كأنها الأرض السُفلى لا يُؤنسني غير الشياطين أرى خيالاتهم وصوت الفئران يزيد من موتي كل ليلة.. إلى أن اعتدتهم، قررت ليلتها بأن أبدء رحلتي.. حياة هي أو موت لن تُشكل فارقًا.. ليس لدي ما أخسره.. ما هي إلا حياة.. ولست مالكها.. فإذا شاء الله أخذها إلى جواره آمنة مُطمئنة.. ولها عزاء أن لا أحد سوف يذكرها.

السفر.. ! هل هي فكرتي أم أن أحد الشياطين، رُفقاء الليالي الصامتة السوداء أشاء على بها.. لا أدري.. لم أفكر فيها أو وضعها في نطاق تفكيري ..

أتعلم.. أتعجب أحيانًا أنني أفكر فتظهر العديد من التراكيب والأفكار والتعبيرات وأنا لست مُتعلم !

السفر..! الموت الإنساني ..

إذا ما رحلت عن محلك فسوف تموت، لن يبق لك سوى ذكرى وجودك، وستموت هي أيضًا.. ويُقرأ لنا الفاتحة ممن يتذكرنا.. إذا تذكر! فحتى الذاكرة تموت وتتحلل.. بإرادتنا أو بدون !

السفر..! حياة الهروب ..

أُترك سُبُلَك جميعاً.. ملابسك.. طريقتك.. كلماتك.. واستمنائك على جسد الجدران وابدأ موتًا جديدًا كما تشتهيه نفسك.. بالتأكيد هي فكرة شيطانية !

يظهر في عقل بالي .. لم أكن لأُفكر هذا الفِكرُ إذا ظل والديَ على قيد الحياة، لقد أتاحوا لي فُرصة العبث.. أو الإختيار.. والقرار.. أرى روح أمي طاهرة نقية.. تتوضأ من حوض النبي كما قال شيخ المسجد في خطبة الجُمعة، فيسقيها النبي محمد من يده شربة ماءًا لا تظمأ بعدها أبدًا ـ وهل يظمأ من في الجنة؟ ـ تبتسم لي.. وتَمُد لي يدها أرى الحنان في عينيها.. بؤبؤ ناصع الرقة، سُرعان ما تبتعد وتزال ابتسامتها الرقيقة، فتُرسم على وجهي وأنا أعود ملكوتي مع حركة الفأر المُداعب لقدمي بصوته الحاني وكأنه يلاعبني، أعتدل على جنبي الأيمن وأسأل بصوت مسموع.. كيف تكون أمي وأنا لم أرها!

السفر..! الموت المُقدر .

مُنى.. موتي وحياتي، بفستانها الطويل وضفيرتيها الناعمتين المربوطتين بقطعتي قماش حمراء أو بيضاء، وجهها المُستدير وطابع الحسن في ذقنها، أراها ذاهبة إلى الحضانة تزهر الأرض مع خطاها، فيتبدل العالم بآخر أحلى وأرق، إذا ما اختفت أتذكر أنها أختي! فأم منى لم تبخل عليّ بصدرها، مثلها مثل باقي سيدات القرية، لا بد أن يكون لك شيئاً يُذكرك بماضيك.

السفر.. قهر الموت!

في الغد، مع الليل.. أبدء موتي ..

الغد..؟! وما فارق اليوم عن غد !

أنهض من رقدتي وسط شياطيني وفئراني - عائلتي الصغيرة - فلا أتعثر في أحدهم ولا في كرتونة أو جوال على الأرض، فأنا سويتهم وأعلم كل خطوة إلى أين تصل بي.

أودع الأرواح التي حرستني، احتضنتني، وأنظر إلى كل ركن.. أصافحهم في نفسي.. ألمسهم بخيالي..

فإذا ما آتاهم الموت.. لا يهابوه..!

أِخرج من الشباك العالي في الركن البعيد من الدُكان الذي يصل بي إلى الشارع الجانبي الضيق الغير مُسفلت، ثم أُغلقه سريعًا ورائي فلا أترك لأحد أفراد عائلتي مُتسع من فرصة أن يهربوا.. لماذا لم أدع لهم فرصة الهروب؟! عجبًا لنا - نحن البشر- حينما يكون لدينا القدرة على التحكم بالمصائر!

أسير ببطئ ناظرًا في كل الإتجاهات، فلا أترك ورائي

ولا جانبي وبالطبع أمامي.. بيتًا ولا بابًا أو حتى مصطبة دون وداعها بالعين والقلب.

إلى أن أصل لبيت مُنى فأُرسل لها قبلاتي في الهواء عله يوصلها إليها! أترك بيتها ورائي فأستمع إلى صوت شباك يُفتح، لا أنظر إليه.. فلا ضامن لي أنه شيطان وأراد أن يُعيدني سيرتيَ الأولى.

❊❊❊

طفل يسير في عتمة الليل على أسفلت الطريق الرئيسي وسط أضواء أعمدة الإنارة الصفراء البرتقالية، يُشارك الكلاب الضالة بحثها عن اللاشيء، أنظر حولي وإلى المباني العالية التي لم أرها من قبل حتى يداهمني صوت يقترب ويبتعد فأجد سيارة زرقاء ولونين أحمر وأزرق يدور فوقها وتتجه نحوي بغضب وكأن مصباحيها عينين غاضبتين تُريد قتلي وتسويتي بالأسفلت الذي أقف عليه .

أعدو! أعدو بأقصى ما أستطيع من سرعة! لا أعرف لما أعدو وكأني أهرب من أمر أجهله من الأساس، تتعثر قدمي فأسقط على الأسفلت بعد عدة أمتار، أصرخ من الألم، أتحسس وجنتي اليسرى والدموع تنهمر من الألم فأسمع الصوت يقترب، أستكمل عدوي مرة أخرى وأنا أسرع من خطواتي ثم أبطئ من دون إرادتي، من شارع إلى آخر ولازال السؤال يتردد لماذا أهرب؟ ومما؟! ومن هولاء؟!

– انزلوا شوفولي ابن الوسخة ده حكايته ايه!.

سمعت صوته الأجش الضخم أتخيله بكرش كبير

وشارب كثيف ورأس أصلع يُثير الرعب من دون رؤيته، فما بالى إذا رأيته! مُختبئ في مدخل بيت داخل زقاق بين عمارتين عاليتين، أستمع إلى خطوات تقترب وكأنها ديناصورات تدب الأرض بقوتها مصحوبة بغمغمات لا أكاد أميز ما يُقال.

أحاول أن أخذ نظرة على الوضع خارجًا، أرى رجل سمين يتحرك صوب آخر رفيع ينفث دخان سيجارته بقوة وينظر لنقطة ثابتة ويستمع إلى السمين وهو يتحدث، ثم يُلقي سيجارته على الأرض ويركب السيارة وتتحرك.

أتقدم خارجًا من الزقاق لأجد يد تُمسك بمعصمي تجذبني إلى غيابات الظُلمة، ظلًا لا أتبينه رغم علاقتي القوية بالأشباح وعالمهم، أيقنت أنه بَشَرْ فأنا أرى الشياطين في الظلام جيدًا!

- خُش هنا بسرعة!

قالتها بصوت يُشبه الفحيح أكاد أسمعه، أهز رأسي بالموافقة وأنا مشدوهًا مما يحدث، تبتعد أصوات خطواتهم التي تدب كأنهم كائنات مهولة الحجم -وهم كذلك- تُزلزل، بل تُحطم البيوت تحطيمًا.

حينما نظرت لها بعدما عاد السكون ليُسيطر على الجلبة التي أحدثوها، هي! مُنى! تُحسب طويلة، نحيلة، لونها أسمر -لم أدر هذا حكم الظلام أما أنها سمراء- ترتدي ما لا يتماشى مع بعضه، قطع قماش قصيرة وأسفلها طويلة وفي النهاية بنطلون مهلهل، عينيها بيضاء مُنيرة! كأنها تُضئ المكان وسط تلك العتمة السوداء.

تُجلسني على الأرض تحت بقايا درج قديم، تبتسم لأول

مرة، تسألني من أنا؟ ولماذا يريدون الوصول إليّ؟ وهل أنا مُسجل أم هارب؟ آخر سؤال جديد على قاموس معرفتي.. يبدو أن عِشرة البشر تختلف عن الشياطين كثيرًا .

- مش فاهم؟!

- تبقى لسه مُستجد يا توتو !

توتو! أشعر لأول مرة أني صغير! أكره هذا الشعور تمامًا، أقولها في نفسي ناظرًا إلى ركن مظلم بعيد - أو هكذا ظننته - كم يُشبه الظلام الموت، كلاهما مجهول، اكتشفت الثاني مُبكرًا وظننته الأسوء، لكم تُخيب الظنون اعتقاداتنا،

- انتِ اسمك ايه؟

- إنتَ ودماغك!

قالتها وهي تُسوي ملاءة أو «شِكارة» على الأرض وتجلس على أقصى يمينها وتستعد لتتمدد وكأنها على سرير في بيت له باب ومُغلق بترباس يُطمئن النائمين، تبتسم بخُبث ابتسامة مكتومة الصوت بنظرة عين ثابتة إلى عيني، أكره أن يهزئ بي أحد أيًا كان، عدا مُنى قطعًا، تقول وهي ترتكن إلى جانبها الأيمن واضعة كلتا يديها تحت وجهها كأنها وسادة، وأظن أنها فهمت ما قولته في نفسي تمامًا،

- خلاص ما تزعلش.. بص أنا ما أعرفش اسم.. بس بينادوني «مد يحة»، شوف تحب تقولي ايه.. مابتفرقش،

أنظر لها بتعجب كيف لكي أن تنامي وسط أنقاض في عتمة الظلام المفتوح، أظن نفسي بطل بنومتي وسط

شياطيني كل ليلة فماذا عنها!

- تعالى نام والصبح ربنا يبقى يفرجها من عنده.

أستسلم للأمر الواقع، إضافة إلى اطمئناني لها، أتمدد فأعطيها ظهري والانتفاضة من شدة البرودة والذعر تهز جسمي مهما كتمت نفَسي لحظات وأدفئت قدمي بحركة متتابعة كي تُولد الدفئ.

فجأة أنتفض خوفًا حينما أجد يدها تلف صدري وتُقربني إليها، يدها الأخرى تتمدد تحت رأسي فتصنع لي وسادة رغم أنها عظم أكثر من لحم، فتهدء أنفاسي، وأرتاح لأنفاسها الطويلة في رقبتي، لأول مرة أشعر بتغيرات غريبة تحدث بداخلي، هل أتت الشياطين هنا؟ ما سر تلك الحرارة التي تملئ جسدي فتنفجر في وجهي، أضم ساقيَ على بعضهم بقوة، يُسيطر اللهيب على وجهي، رأسي، يتقدم ليملئ صدري كأني أشرب شيشة مثلما كنت أراهم على القهوة، ثم يشتعل من بين ساقاي، أتذكر مُنى.. ثم تتبخر وتملؤني «مد يحة»..

***

أصل إلى رصيف محطة القطار المتهالك الأصفر اللون مُقشر طلائه متكسرة أطرافه البعيدة في آخره ومصطبتيه الرخاميتين المسقوفتين المسندوتين بسِت أعمدة حديدية صدئة.

الساعة الآن تقارب الوحدة إلا قليل من الغياب.. أقف مُنتظرًا قطار القدر القادم من حيث لا أعلم كي أرافقه إلى

حيث لا أدري، ها هو الضوء الأحمر يعلو مما يعني أنه «قافَله» كما أسمعهم، لا سابقة لي مع القطارات.. أرى ضوء صغير من أقصي نقطة في الأرض، لن ينتظر كثيراً.. من يُسافر الآء ليبدء حياة؟

هل لبدء الحياة ميعاد انطلاقة؟! لو كان للموت.. فسوف يكون للحياة .

***

رغبة عارمة في التبول! أين الرصيف؟! أشعر ببرودة تجعلني أنكمش فأعود جنين لرحم لا وجود له، يُضايقني احساسي بقطرات بولتي في سروالى، هكذا ظننتها، بوادر اليوم تظهر، أنهض سريعًا وأنزوي إلى ركن خلف الدرج الذي نحتمي به فأفرغ معدتي .

أعود إلى «مد يحة» وقد اتضح وجهها، سمراء حقًا، كحيلة العين، حاجبيها الكثيفين السوداوين، شعرها الأسود المُجعد المائل إلى الصُفرة من قلة الاستحمام، أدقق النظر إلى جسمها كأني أكتشف كنز، أول جسد أمعن النظر فيه فأحفظ تفاصيله رغم نحولتها وقذارتها، وسط نظراتي المُتفحصة تُفاجئني باستيقاظها، فتفتح عينيها وتتكلم كأنها لم تكن نائمة، تراني أمام وجهها أقف وفي ظهري الضوء، تتحدث بفرح أظنه هزلي وهي تحدثني وأنا أجلس جوارها وترى بقعة بلل ما بين ساقيَ، أشعر بتلك المادة اللزجة لا أدري ماهيتها، لكني أشعر بأني أصبحت قوي والسعادة انفجرت في نفسي وألهبت أنفاسي .

– مبروك أنت بلغت أهو! وعلى ايدي!

تقولها وهي تنظر إلى ما بين ساقي، يحمر وجهي رغم أني لم أفهم ما تقصده ولكني شعرت بأن كلمة «بلغت» تشي بشئ من الحرج لم أكتشفه بعد، أرجع إلى الخلف ولا يزال الضوء في ظهري واضعًا كلا كفي يدي على موضع حديثها ونظرها، بينما هي تهم بالوقوف، ترفع بنطولنها الأحمر القذر إلى ما فوق وسطها، ثم تفك شعرها المربوط بما يُشبه قُماشة، تُحرك رأسها يميناً ويساراً كأنها «ملبوسة»، تجمع شعرها بكلتا يديها من جانبي قمة وجهها مرورًا بأذنيها وبين شفتيها رابطة شعرها -ما يُشبه القماشة- أتركها تُكمل جمع شعرها وأغيب أنا في النظر إلى شفتيها .

– جري ايه ياله.. أنتَ ايه شرقان!

قالتها وهي تضحك ضحكة عالية ضحكت رغم عدم فهمي بما سمعته لكن عجبتني طريقتها، تتحدث بجدية لكن ضحكتها في نهاية الجُملة توحي بكوميدية:

– رسيني بقي انتَ ايه حكايتك؟

– أنا!

– وله! المخبرين اللي كانوا بيجروا وراك ليلة امبارح! أحداث ولا مخدرات ولا ايه؟

– والله أبدًا ولا أي حاجة من دي خالص!

– يا توتو! أنت شكلك غلبان حديدة.. لا أنت تيجي تِسْرَح معايا.

– أسرح؟

- أه يا روح أمك أوما..

- مالكيش دعوة بأمي وماتجبيش سيرتها!

أتبدل تمامًا من وجه صافي لا يُعبر إلا عن بلاهة الصغار وعدم الفهم كثيرًا إلى وحش كاسر يستطيع أن يقتُل، يأكل، أو يُمزق من قد يفكر - فقط يُفكر - في مضايقته وليس القيام بفعل، تَرقُ حدتها وتكشيرة جبهتها، تقترب من وجهي وتسألني عن والدَتي في شبه انكسار، أظنه اعتذار عن كلمتها التي أخرجت «الوَحش» الكامن داخلي،

- اللّه يرحمها هي وبابا.. ماتوا في حادثة من سنين .

أرى التأثر في عينيها، تتبدل إلى جدية مرة أخرى وهي تمسح عينيها سريعًا وتأمرني بالاسراع «يلا بلاش لكاعة»، تخرج وأتبعها إلى مصير آخر لا أعرفه، يُشبه الحلم، هذه محطة القطار، تُرى هل «مد يحة» هيَ القطار الذي سأركبه؟

- احنا رايحين على فين؟

- تصدق باللّه.. أول مرة حد يسألني السؤال ده!

- ليه؟

- أصل اللي زيي هيروح فين؟ كل الأماكن زي بعضها .

- ما تيجي نسافر..

- نسافر فين بقي إن شاء اللّه ؟

- هتفرق معاكي.. ما انتِ لسه قايلة كل الأماكن زي بعضها !

- تعجبني يا وله أنت ..

- خلاص يلا نركب القطر!

- ده أنت مُصِر بقي!

تقف تنظر إليَ، بالأدق تبحث في وجهي أو جسدي عن إجابة تشفي أسئلتها عن طبيعتي، فأنظر لها ضاحكًا مُشيرًا بيدي أن «ورايا ورايا»، فأتقدم أمامها وأتركها خلفي وصوت ضحكاتها العالية تأتيني رغم جديتي في السير، فأضحك حتي تصل إليَ فتضربني على ظهري بشقاوة، وبالأخرى تُخبئ فمها وهي تضحك .

❊❊❊

السعادة المُكتملة! أشعر أني طائرًا، يا لها من متعة حقيقية ركوب القطار، أحاول أن أغلق فمي عن الابتسام فرحًا لكن لا يد لي في شعور لا ارادي، أنظر إلى أعمدة الإنارة التي تهرب واحد تلو الآخر، القضبان الطويلة التي لا نهاية لها، تتقابل في نقاط مُتباعدة، «الزلط» الذي يملئ الأرض، صوت العجلات المُتتابع مع الحركة الصعودية والهابطة مرة أخرى سريعًا.

تجذبني «مديحة» كي أجلس بجوارها في أرض القطار وراء الباب، ظننت أننا سوف نجلس على المقاعد البلاستيكية الملونة بجوار الزجاج المتكسر أو الغير موجود في مقاعد أخرى، فصدمتني بقولها «أنت مابتعرفش تركب قُطرات خالص!» فكرت في مغزى الجُملة لكن شعور داخلي دفعني للنظر إليها فهزت رأسها وقالت «بالظبط كدة!»، سَعُدت بوصولي لمرحلة الفهم من العين، رغم جهلي .

تُخرج سيجارة من جيب داخلي، تُمسكها بيسراها ثم بلمسة رقيقة كأنها تهدهدها بإبهامها والسبابة فتعيد تنسيقها أو قُل توقفها مرة أخرى بعد جلوسها داخل الجيب، يأتي دور القداحة في الظهور، تضع السيجارة بين شفتيها، تضغط قداحتها مرة، ثم أخرى إلى أن تُشعلها، تنفث دخانها في وجهي فأتنفسه وأسعل، تدمع عيني، تسحب نفس طويل، فتكتمه قليلاً ثم تُخرجه دفعات، مشدوهًا بما أراه! لكن كأن كافة الرُكاب ينظروا إلينا -هكذا ظننت- وتحديدًا إلى بنت تُدخن سيجارة في القطار جالسة على الأرض وبجانبها ولد، وبالأحري رجل!

- هاتي سجارة!

تضحك ليس كضحكتها العالية المُعتادة، يبدو أنها قد أدركت أننا وسط ناس، وتقول:

- سجارة مرة واحدة! طب خدلك نفس الأول .

تناولني السجارة، أحاول تقليدها، أُمسكها بين السبابة والوسطى، أسكنها على جانب فمي، أسحب «نفس» كما قالت، أشعر بدوار، أسعل، تدمع عيني، تضحك ضحكتها العالية غير مُبالية بالناس، تضحك وتقول بصوت عالي:

- يا توتو! ماتدخلش جامد كدة.. اسحب براحة ..

أنظر لها فتفهم ما يدور داخلي «مش فاهم بتقولي ايه!» لم يكن الوقت مُلائم لمعاتبتها على «توتو» التي أكرهها، فتابعت:

- ماتاخدش على صدرك م الأول.. واحدة واحدة يا دكر!

أعيد التجربة فآخذ «نفس» آخر وأخرجه ببطئ ناظرًا للدخان المُنطلق في خط كسهم لوجه «مد يحة» التي تُصفق بكفين مفتوحي الأصابع قائلة:

- الصلاة ع النبي عليك يا..

تنسى الموقف وتسألني:

- ألا أنتَ اسمك ايه يا اسمك ايه؟

- اسمي فاروق يا اسمِك ايه!

تضحك ورأسها يرجع إلى الخلف فاتحة فمها ومع آخر ضحكتها صوت شخرة من أنفها - أتعجب من هذا الصوت - وأنا في قمة نشوتي أخرج دخاني من أنفي كمتمرس في الهواء وأنظر في الاتجاه الآخر بكل ثقة غير عابئ بالناس.

***

تهب ريح عاتية تميل لها العربة، فنهب واقفين للإمساك بها، ظهرت الاشارة قبلها بدقائق، مالت أعلى العربة وتحركت أو بالأحرى شبه تحركت ولكن لم نبالِ، ابتسمنا لبعضنا أن «الحمد للّه، سترها!»، نعود مجددًا إلى جلستنا فأفتح الحوار مُتسائلًا:

- طب وعلى كدة «مد يحة» فين دلوقتي!

ظننت أن صوت الرياح أحال دون سماعه لسؤالي، فأعدته مرة أخرى، نظر لي وعينيه تعكس الضوء الأصفر المُعلق في عربته، كأنه يقول في نفسه «ليه فتحت الجرح.. ليه!»، حقًا! سوف تنتهي القصة هنا! هذا لا يُصدق، لا بد من

استكمالها، طالما بدأت المتاهة، فعليك بمتابعة السير.

- آسف.. لو.. يعني ضايقتك بسؤالي !

قولتها بشئ من الإحراج وحزني على أني ذكرته بأمر يحاول جديًا في نسيانه - إذا ما استطاع ذلك - ومتابعة حياته، نظر لي نفس نظرة السؤال وقال وهو يُخرج سيجارتين، فيشير إليَ بواحدة، يُشعل لكلينا ويقول بصوت عميق وأداء مسرحي وهو ينفخ دخانه:

- مد يحة تعيش أنت!

يخنقني الدخان في حلقي وصدري، أشعر بهبوط حاد في ضغط دمي، يدور الكون بي، أرى فاروق وعربته في كل اتجاه، أحاول أن أفتح عيني ولكن الكُحة تمنعني، أسمع صوتها بعيد، مُبتسمة كعادتها، أحاول التدقيق في خيالها، أسقط على الأرض، يحتضنني السواد ووجه الموت المُبتسم الذي أكرهه، صوت فاروق يُنادي:

- إنت كويس! حاسس بإيه؟!

أحاول رفع يدي صانعًا شكل لا أعرف ماهيته، دون جدوى..

أعرف شكله تمامًا! أعدو بكل قوتي، الطريق لا ينتهِ، هيا! أريد أي مبنى أو حتى مقلب قمامة أتخفي منه، فيه، كفن! نعم هو كفن، أسود اللون، تظهر منه يد لهيكل عظمي يقطر دمًا، ها أنا ذا أصل إلى مدخل عمارة مظلم أختبئ به، فأجد النعش في انتظاري، يبتسم لي ويفتح بابه كي أتمدد، أهِم بالعدو مُجددًا حينما أصطدم بسيارة

بيضاء مكتوب عليها بدم أحمر حار يتصاعد منه الدخان، أتذكرها! لقد رأيتها من قبل، أعدو أكثر وأكثر، أخذ نظرة للخلف فأجد المكتوب على السيارة «نقل الأموات»، أتقيئ سائل لزج مائل للإحمرار وسرعان ما يصدمني ضوء ساطع، ثم تغرب الشمس.

أفتح عيني، ثقيلة، آآآه! هل أنا ميت الآن! تبًا لقد فعلها الموت وأخذني على حين غرة وأنا أهرب منه ما استطعت! هل أكره عامر الآن لأنه السبب في عودة الموت إليَ بعدما هربت منه طيلة أعوام، الجو بارد هنا، إذن.. أنا لست في الجحيم، بالتأكيد فوق جبل يجري من تحته نهر من العسل، رائحة الهواء كأنها مسك أو يود، أرفع رأسي لأجدني فوق رصيف، أتفاجئ فأعود للخلف كأني أسحف، أتحسس وجهي، رقبتي، وذراعيَ لست مُقطعًا إربًا أو مأكولًا، لقد ابتلعني دفعة واحدة، أنظر حولي لأجده المكان حيث كنت أجلس مع فاروق، هذه عربته، أبتسم بجانب فمي حينما أدرك أنني لازلت هنا، أسخر من الموت الذي لم يفلح في اقتناصي، محاولة أخرى فاشلة، وتظل الحرب دائرة بيننا، بعد كل من عرفت - يا موت - لهم سبيلًا.

ها هو ذا، فاروق! أتذكر كلماته عن مديحة منذ قال العبارة التي أغرقتني في دوامتي، لو أن أحد يعرف نقطة ضعفي تلك سوف يصل إليَ بكل سهولة، لقد عانى الكثير حقًا، منذ وصوله هنا واستكمالهما -فاروق ومديحة- رحلة البحث عن كل شئ، ظل الشارع منزلًا فسيحًا، يستكشفا كل ليلة مكان جديد، يُشاركا الكلاب الضالة والقطط

المريضة الأكل، من مكان تحت كوبري، إلى عقار تحت الإنشاء، ثم مزرعة أو أرض زراعية في منطقة نائية، وعودة إلى القطارات المعطلة في المحطة، المكان الوحيد إلى لم يمله أو يقدرا على نسيانه، يتقدم العمر بهم، يتعلقا ببعضهما أكثر فأكثر، تكثر بهم العلاقات مع الرفقاء أمثالهم.

منهم من انضم إليهم تابعًا ورفيقًا، وآخرين أرادا لهما منزلة التابعين، وهذه هي الأزمة التي صعدت الأمور لما انتهت عليه، في ليلة زاد سوادها سوادًا مع انقطاع التيار الكهربائي عن المنطقة التي اتخذوها بجوار محطة القطار، أتى رسول من زعيم منطقة كبيرة يُخبر فاروق أن «الزعيم هينولكم رضا لقُياه!»، مجرد شاب متشرد بائس آخر، يميز وجهه تلك «البشلة» واتجاه فمه لليسار أثناء الحديث، يبدو انها مصطنعة لكنها تُضفي بعض الرعب وشعور بعدم خسارة أي شئ في حالة حدوث أي خطر، اضافة مناسبتها لطبيعة عمله كـ «مثبتاتي» أي الشخص الذي يثبتك ليلًا ومؤخرًا نهارًا أيضًا ليأخذ ما تملك وإن كان بك رحيمًا تركك بدون «علامة» على وجهك أو لسوء حظك في مكان آخر تُذكرك - العلامة - بلقاءه السعيد الذي لن يُنس.

أعتدل فأجلس القرفصاء، هل أشبه الكاتب المصري القديم؟ أترى إن جلست هنا نفس الجلسة، هل سأحصل على معاملة الشحاذون، فيضع أحد في يدي «حسنة»، أرى فاروق منهمك مع شاب وفتاة وهو يضحك معهما، أُسقِط رأسي بين ساقيَ وأحاول تذكر، هل قال لي ذهب وحده أم معه مديحة؟ نعم تذكرت! قال للرسول أنه سيلحق به، فإعترض الرسول

بحدة:

- لا! أنتوا الاتنين هتنولوه سوا!

وحينما ضحك فاروق رغم حدة الموقف وحزنه من استرجاع تلك الذكريات بأنه سأل «هو ايه ده؟!» فقال الرسول وهو يسير مُغادرًا:

- الرضا يا روح أمك!

حينما لم يدر فاروق بنفسه إلا وهو يعدو كالكلب المسعور ويقفز في الهواء ويضربه بسيف يده على رقبته بكلتا يديه، فسقط في حينها أرضًا وبدء ينهش لحمه، فيخرج قطعًا من لحمه ويمتلئ فمه دمًا، فيلقي بعيدًا للكلاب، تصل إليه مدية تحتضنه وهو يرتعش وينظر لباقي الرفقة ويصرخ بهم:

- اللي يجيب سيرة أمي.. أِكُلْ لحمه حي!

يَتفُل على جسده ويضربه بقدمه عدة ضربات، وهي تحاول جذبه، يقف وينظر للبقية ويقول بغضب :

- كله يعرف إن في كبير موجود .. والخوف نفسه بيخافني!

فخروا سُجدًا طالبين الرضا والقبول كصبية تحت يدي المعلم آكل لحوم البشر، تقدم خطوات ثم نظر للخلف وقال بصوت هادئ يُشبه شخصية المعلم:

- الكل لازم يعرف باللي حصل.. وصلوا الجثة للزعيم بتاعهم.. وقولوله..

يصمت ثواني فيتابع:

- الريس فاروق لما يجيله مزاجه.. هيشرفك! .

تسير مد يحة بجواره وتتهادى علها تتأخر عنه خطوة، خوفًا منه، تتذكر جيدًا أول مرة قالت له فيها «روح أمك» وكيف تبدل! لكنها لم تدرك أنها قد تصل به إلى هذه الدرجة، حقًا تخافه الآن وهي التي لا يهتز لها شعرة واحدة، تشعر برعشة جسده، يجذبها من يدها تجاهه حتى يلتصقا، يقول بصوت مرتعش «أنا خايف يا مد يحة!» تعجبت من الجملة الغير ملائمة لما شاهدته منذ دقائق والآخرين شهود، تتعثر خطواته، فتكاد تتخبط قدميه ببعضهما البعض، تحاول مد يحة أن تمسكه ولكن يسقط وتسقط معه أرضًا، فترى دموعه ساخنة وجسده باردًا مرتعشًا، تحتضنه وتربت على ظهره، لا تدر ماذا تقول، تخاف إذا أخطأت القول أن ينهشها، تهتدي لأن تُكَبر به، ترتعش، هل أصبتها رعشته في جسدها؟ تستجمع أنفاسها السريعة القلقة، «إنت دلوقتي..» فتبدأ بكلمة وتبحث عن المزيد:

- معلم.. أأقصدي الريس فاروق.. وحتمًا تبقى قدها.

تسكت لحظة وتقول بسرعة:

- وطبعًا قدها!

تضغط على رأسه التي تحتضنها وتتابع:

- ومد يحة في حمايتك وباقي صُبيانك.. أنت هيبقى ليك شان كبير أوي.. وبكرة.. بكرة هفكرك!

يستمع لهمس خفيض بعيد لإمرأة، يظنها مُبتسمة، تُشجعه على النهوض، تحثه للجد والعمل والمزيد من القوة

والسُلطة، يمسح وجهه بيمناه حتى يصل إلى شفتيه فيمسحهما في شكل دائري، وفمه مفتوح، فيتحسس الناب الأيمن، ثم الأيسر، ينظر إلى يده في ضوء القمر البعيد، يرى خطوط يده المتقاطعة كأنها طريقه إلى هيمنته التي يريد تحقيقها، يستمع لصوت المرأة مجددًا تقول «هتوصل!».

يخرجه صوت مديحة الملئ بالحنان والغنج، مع ابتسامتها وحاجبيها الذين ارتفعا فور أن نظر إليها، تتصنع أنها الأنثى الضعيفة المُتشبثة بالثعلب حامي الحِمى، تضغط على شفتها السُفلى في إثارة، ترى ما تُريد في عينيه، فتضحك ضحكتها المثيرة وتنهيها بشخرتها التي يعشقها، يبتسم، فيضحك، ثم يحملها حِملاً، هي تضحك بنظرة أفعى، وهو يبتسم كثعلب، لم يرى أحدهم الآخر.

❊ ❊ ❊

فاروق ٢

«فَلَبِثَ هُنَاكَ أَيَامًا كَثِيرَةً لأَنَهُ تَجَدَدَ فِيهِ غَمٌ شَدِيدٌ وَأَيْقَنَ بِالْمَوْتِ»

سفر المكابيين الأول ٩:٦

أنهض فأواجه الطريق الشبه خالى، أشم رائحة الهواء، فيذكرني كيف انتهت قصة فاروق ومد يحة، حينما قرر فاروق أن يذهب لـ «الزعيم»، يحتاج إلى مزيد من الدعم إذا ما ظل وحده، فخطوات تَقدمه ستظل بطيئة، اللقاء مهيب حقًا، في كيان ضخم خلف مكان جمع القمامة المعروف في تلك المدينة، وجد صِبية الزعيم يهموا واقفين حينما رأوه يتقدم بمفرده، ما بين متعجب ومنتظر لحظة الانفراد به وقتله كما فعل مع الرسول، استقبله الزعيم بحفاوة أثارت في نفسه القلق، منتظرًا ثمن هذا الاستقبال، جسد سمين مترهل عريض، ذقن غير حليق وعينين شريرتين وابتسامة عريضة تدل فقط على الحيطة، يرتدي جلبابًا ويمسك مسبحة، صوته جهوري في كافة الأوقات، يضحك على أي نكتة وإن لم تك نكتة ويشاركه الصبية معه.

– الريس فاروق بذات نفسيته! ده الليلة عيد!

– عيد بوجودك يا زعيم.

يضعف الزعيم أمام التبجيل وهذا ما عرفه فاروق تمامًا

وقرر استخدامه، تدور السلامات والاطمئنان كل على الآخر، ينتظر كل منهما الآخر كي يبدء .

– طب ابدأ أنا.. مش خيركم من يبدأ يا ريس برضه!

ثم يضحك بصوت عالي يهتز كرشه الضخم ودهونه معه، ويشاركه صبيته حتى يتوقف دون إنذار فيصمت الجمع، يضحك فاروق ويهز رأسه أي «أكيد يا زعامة!»،

– أنت محتاجني زي ما أنا محتاجك!

– نتفهم غلط كدة يا زعامة!

يضحك على عبارة فاروق الآخيرة، ثم يتوقف مرة واحدة ثانية ويقول بصوت ونظرة جاحظة :

– وبحتاجلك وتحتاجلي .

فيرد الجمع في الخلفية «مابيناااااااا ألف حلقة وصل!» يتعجب فاروق من الصوت المفاجئ الذي دوى كـ «كورال» منظم، فأدرك أن الزعيم له نظام يسير عليه الجميع، يدرك كل فرد دوره جيدًا، أمر عظيم ومُرعب في آن واحد ..

– أوامرك يا زعيم؟

– مد يحة تلزمني!

يتشكل الغضب على وجه فاروق وتتكور قبضة يده، بينما باقي الصِبية تضحك على مقولة الزعيم، يتذكر كلمات مد يحة التي أعادتها مئات المرة دون خوف:

– إوعاك تِغضب! إنت في حِتتهُم.. اشتري ماتستعجلش البيع يا ريس..

قال الزعيم طلبه كأنه مغازلة ليعلم إلى أي مدى سوف يتحرك فاروق، تهللت أساريره حينما رأى الغضب يعتليه، سُرعان ما تبخرت حينما وجده يبتسم وتختفي أمارات غضبه ويقول مُبتسمًا :

- خَدامتك يا زعامة ..
- أنا مش عايزها ليا لا سمح اللّه.. الحريم على قفا من -لامؤاخذة- يشيل! نحتاية.. ويلزمها وجه جديد!
- هتشغلها في السيما يا زعامة .
- مد يحة هي اللي هتشغل السيما وحياتك.. قولي طلباتك؟
- رضاك!

يسكت لحظات وهو يسدد نظراته القوية مباشرة إلى قلب عينيه ثم يُتابع بكلماته المعسولة :

- رضاك.. كل طلباتي .
- فاروق ده اكتشاف.. قصدي الريس فاروق !

لم يُعلق فاروق واكتفى بابتسامة.

اتفقا على الأمر برمته، مد يحة سوف تتزين وتتأنق فتُصبح سيدة مُجتمع لا شك فيها، وتذهب إلى موقع الحدث المراد ومعها سيارتها - التي سوف تُعيدها طبعًا - وسائق، لها هوية جديدة واسم آخر غير مد يحة، «فاتن فريد» سوف تُقابل رجل أعمال كبير لم يُذكر اسمه، تُسلمه حقيبة وتستلم أخرى داخل فندق معروف بوسط البلد، الوضع آمن تمامًا، أكد فاروق على سلامتها من كل خطر، وعده المعلم بهذا مؤكدًا

على أنها ستبيت في حضنه «وتعوضك غياب اليوم بطوله!».

راقت مديحة تلك العملية، تظن بأنها قد تكون فاتحة خير تحولها من عيشة الشوارع ومقالب القمامة إلى سيدة مجتمع حقيقية، مليون وعد بأنها ستعود لفاروق مؤكدة على عدم غيابها، أثار هذا القلق في نَفس فاروق، أول مرة تُطلق وعد بعد كل تلك السنين! ابتسم في وجهها وأكد أنها لا تستطيع أن تقوم بأمر آخر.

❊ ❊ ❊

يراني فيتقدم نحوي ..

– أنت عندك صَرَعْ يا رايق شكلك!

صرع! أشعر بثقل رأسي، إضافة إلى عدم قدرتي على الحديث، هش، ضعيف مثل قنديل رخو على الرمل، أنظر له كأني فقدت الذاكرة، أو أني كذلك فعلًا ..

أنظر لمصدر الصوت فأجد فاروق وبجانبه فتاة يتحدثان ويضحكان، أجلس نصف جلسة أحاول أن أستجمع شتاتي وغيبوبتي العقلية، السؤال الأهم الواقف أمام عيني عقلي: ما الذي أجلسني أو بالأحرى أسقطني نائمًا هكذا؟ إضافة إلى ما هي حكاية «الصرع» تلك التي يقول عنها الرايق؟

أستند على قالب طوب بجوار الرصيف وراء ظهري، يتقدم فاروق تجاهي، يمد يده مُساعدًا لي على القيام، أسأله بشكل مفاجئ وسط كلماته أن «صح النوم» و «حمد لله على السلامة»

- هي مد يحة.. ماتت ؟
- فال اللّه ولا فالك يا رايق، ليه كدة طايب !

قالها بسرعة وفي نفس واحد بصوت غاضب وملامح ضيق، ثم يُشير إلى الفتاة الجالسة ..

- أهي! مد يحة أهي ..
- أومال لما سألتك قولتلي تعيش أنت ليه!
- أنا قولتلك كدة! أنت شكلك حوارتجي .

وبسرعة يُخرج مطواة من جيبه ويفتحها ويضعها على رقبتي، الغريب أني لم أفاجئ، ثابت دون أي رد فعل ضعيف أو مُقلق، تُسرع مد يحة مذعورة وتهدئ فاروق وتقول لي وله أيضًا :

- اقصر الشر يا فاروق! وأنت يا باشا روح اللّه يسهلك!
- هو انتِ مش كنتِ عند الزعيم في مصلحة! وكان اسمك فاتن واختفيتي فترة ورجعتي تاني!

تجحظ عينيها وهي تُحركها بين فاروق الذي نسيَ وجود المطواة في يده، وبيني، رد فعلها يوحي بأن ما حدث.. حدث ..

أظن الوقت الآن مناسب للمغادرة، رغم حيرتي وقلة حيلتي في معرفة أيهما أصدق ما رأيته.. أم ما.. سُحقًا ما رأيته أيضًا!

سهر

«وَالْحَيُ، وَكُنْتُ مَيْتًا، وَهَا أَنَا حَيٌ إِلَى أَبَدِ الآبِدِينَ! آمِينَ، وَلِي مَفَاتِيحُ الْهَاوِيَةِ وَالْمَوْتِ»

سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي ١:١٨

ذبلت عينيا، لم يكن الحزن وحده شريك الوداع! كيف استقبلت عزرائيل! بأي وجه أعلنت له وجودك يا هادم اللذات.

❊ ❊ ❊

أسير لا أُبال بالجو البارد، ليل يناير القارس، كأنه يتلذذ بعذابنا، هل تلذذ بك هكذا مثل الشتاء يا (عامر)!

أجلس على صخر الكورنيش، لم أتذكركم من الوقت مضى وأنا أتجول وسط زحام ظنوني وأفكاري فإذا ما اتخذت جانبا لأمر، أتعثر بذكرى معك، أترى.. لما حقا لا ننسى من فارق توا لفراقه!

- أنا سهر!

أنظر تجاه الصوت لمجرد أن أثبت لنفسي هذياني، على بعد خطوات تحصى سريعًا، تجلس من قالت أنها (سهر) وعلى عاتقها كافة المسئولية من معلومة قالتها، فأنا لا أعرفها!

هي طفلة وليست سهر، صغيرة الحجم، كافة تفاصيلها صغيرة، وجه صغير مستدير، عينين صغيرتين رأيتهما

سـوداوتين، حاجبين رفيعين وشـفتين مثلهما، فخذان رفيعان وقدماها تبعد عن الأرض مسافة سنتيمترات وكأنها الفاصل بين السماء والأرض،

– أنا سهر!

يحصـد المـوت الطيبـين، فيترك لنـا هـذه العينـات القذرة، السـاعة الآن تقـترب إلى الواحـدة بعد منتصف الليـل، فتعلم جيدًا هذا الصنف من الإناث المتواجد في غيابات الليل بحثًا عن ضالته وبحث ضالته عن شـبيهاتها، من يشـتهيها!

لا تحمـل أي نـوع من الاثارة، أفكر في مـدى اثارتها من بين صفات بنات فصيلتها وتوأمي لم يمر على دفنه سـاعات!

– البقاء للّه.. شد حيلك!

ذريـة هيئـتي، أعلـم، هـل تتبـدى الأحـزان للناظريـن لتلك الدرجة!

– أنا أعرفك.. إنتَ صاحبه الأنتيم!

– صاحب مين! أنا مش نازل أشقط!

– صاحبك الطويل اللي مات النهاردة .

– عرفتي منين ؟؟!

وصلـت درجـة الاسـتفهام إلى مجدهـا، وهـي لم تنظـر لـي، ناظـرة إلى الأسـفلت، رأسـها مطأطـئ مـن يراهـا يظـن روحها غـادرت إلى خالقهـا .

– انتِ ايه بالظبط؟! عفريت؟

- أنا سهر.. شقط زي ما قولت..
- تعرفي عامر منين؟!
- أيوة.. عامر..

تبتسم بجانب فمها الأيسر وتهز رأسها في حركة بطيئة قصيرة كأنها تريد أن تنس أو تتناسي،

- ما تيجي نتمشى ..
- غوري من وشي .
- هحكيلك كل حاجة ..

يحركنا دائمًا الدافع وراء ما نجهله، الفضول قتل الهرة كما يقول المثل، تقف وتبدأ بالسير، ألحق بها، أردت هذا حقًا.. أسير وأعرف ما تخفيه أو إنها غريزة الشخص الغير معتاد .

- نزلت النهاردة بدري عن يومي المعتاد، خلصت شغلي وطلعت أقف في مكاني المعتاد وعندي شعور إن النهاردة يوم غريب.. مش هيتكرر.. بس ما وصلش لدرجة موت .

أسير بجوارها وهي تضع يديها على صدرها بشكل مربع كما نفعل في أيام الدراسة، أنظر لها وهي لم ..

- مع أني بموت كل يوم بمزاجي.. بس الغصب ما بحبوش.. بس تقريبًا الموت لازم يجي غصب ..
- عامر مات إزاي؟!

لم تجب، تابعت بنفس وتيرتها ..

– أنا اللي اخترت الموت بمزاجي.. عشان عزرائيل ما يشمتش فيا..

يستحسن أن تستمع لها من دون وسيط.. لذا تركت نفسي لها.. ما الداعي كي أتشبث طالما غصبت على أن أتقبل الوضع .

***

أعشق استقلاليتي، عشق التجربة يحركني للمحرم والممنوع والمختلف وهذا ما شجعني لإختيار دراستي للطب هي ليست مُحرمة أو ممنوعة لكنها مختلفة، أمنياتهم جميعًا بدراسة بسيطة ميسرة تليق بـ«بنوتة» رقيقة، حاولت أن أغير رغبتي؛ لمجرد اشتراكها مع تشجيع والدي، أردت هذا سلفًا، إذًا.. هما من يتفقوا معي الآن.

محافظة بعيدة تمام البعد عن محل إقامتنا، تشبثت أمي كعادتها بي، بحجة أني بنت والبُعد للبنت «مش حلو»، رغم منادتها لي بـ «الدكتورة» منذ دراستي الثانوية، تحدثت كثيرًا إلى ربات البيوت من جيران عقارنا الذي نسكنه وجيران جمع الغسيل من البلكونات المقابلة، عن الدكتورة ذهبت، الدكتورة عادت، الدكتورة هي الأمل، الدكتورة.. الدكتورة، لا تصدق ما يقال لك، فيدك في الماء البارد وقت الطقس الدافئ.. قمة الانتعاش، بينما إن كان الطقس باردًا، فستتغير وجهتك.

– ماما! الدكتورة قررت!

قلتها بثقة كحد سيف ارتفع وانقض على الجدال، لا

وقت لديَ للهراء، ابتسم أبي حينها بوجهه البشوش الذي أعشقه، مربتً على ظهري كأنه الوداع- عزرائيل لم يفعلها- فلم تك إلا إشارة لأمي بأن «الدكتورة» التي روضتها، تحررت.

- يعني خلاص قررتي تبعدي وتسيبيني!

قالتها أمي وعينيها تلمع بدموع، ظننتها تعلم بما أنتويه:

- هاجي ياحبيبتي.. هروح فين! وأنا أقدر أسيبك يعني..

احتضنتها بكل قوتي كي أطمئنها، تمنيت أن تصدق كذبتي.

جمعت كافة أغراضي التي لا غنى لي عنها، ليس لأمر مما قد يخطر ببالك عن الوحشة والأنس، سُحقًا! بل كي أقتل شخصيتي القديمة، لأكون أنا عزرائيل نفسي، وعلى قدر الشر، كم أنا رائفة بحالهم من بعدي فلا أريد لهم عناء الذكرى حينما يصطدموا بحذائي أو ورقة كتبتها،

- كان نفسي أجي معاكي وأوصلك بنفسي وأطمن عليكي يا بت!

قالتها بنبرة مقهورة حزينة، رغم هذا ضحكت من كلمة «يا بت».

- أومال بس فالقاني الدكتورة الدكتورة، وفي الآخر تقوليلي يا بت! ينفع يا أم الدكتورة!

- تكلميني كل يوم وتطمنيني وتخلي بالك من نفسك، اوعي تشربي حاجة مش متبرشمة ولا تاكلي من بره وخلي دوا معاكي.. والمصحف ما يفارقكيش.

الوصايا العشر للبنت المهاجرة !

- مش يلا بينا بقى عشان في معاد قطر وهي أسبوع وهتجيلك يا ستي!

قالها أبي في محاولة لتخفيف لوعة أمي، أجزم أنها تشعر بأني لن أعود مجددًا.

***

- طبعًا بتسأل نفسك ليه بحكيلك كل ده.. انتَ ايه دخلك بيه.. احنا بنحكي للأغراب لأننا مابنتكسفش منهم.. عمرهم ما هيحكوا ولا يطلعوا أسرارنا.. لأنهم ببساطة مايعرفوش انتَ مين!
- عايز أعرف ايه اللي حصل لعامر!
- مستعجل! زي صاحبك بالظبط.. هحكيلك .

***

جسدي.. هبة اللّه، وملكيتي أهبها أنا لمن شئت وأخفيها عمن أردت.. أظن هذا برغم عن معرفة الإله بمن سوف نمنح ومن نحرم في حياة البرزخ.

بعد أن أكملت إجراءات سكني بالمدينة الجامعية والتي يغلب عليها الأنوثة، جنس لا أحبه، أنا أنثى؟! سمعتك! بالطبع ولكن مختلفة ليس لي مكان وسط هؤلاء المعتادين، يريدون الحب والتخرج والزواج والأطفال.. حياة مهترئة رتيبة مخططة، أين متعة التحدي!

انتقلت إقامتي إلى غرفة متواضعة بها أربع سرائر، ثلاث

شريكات سوف يشاركونني الحياة لمجرد أننا بنفس الغرفة، لا يختلفن كثيرًا عن البقية، ملابس متواضعة، وجوه ذابلة مصفرة، وأجساد أنهكها التفكير في لقب «دكتورة»، أغلبهن يرتدين نظارات طبية ولديهم نفس نظرة الرغبة في التفوق والحصول على عين زميل أو معيد يهيئ لها جزءًا من رغباتها الدنيوية.

– أكيد قديمة هنا.. صح؟!

قالها شاب طويل يميل للنحافة بوجه مبتسم كشف عن أسنانه البيضاء المتناسقة، فما كان للوجنتين إلا تكورتا فأظهرا نعومتهن بذقن حليق وعينين شبه واسعتين وحاجبين كثيفين السواد مثل الشعر الناعم المتخذ طريقة رشدي أباظة وهو مرتديًا تيشيرت polo أسود.

أنظر إليه كطفلة يداعبها غريب ممسكة بدميتي القطنية وأنا أرتدي فستان قصير يكشف عن ساقيا الرفيعين، أرفع رأسي وعيني عن آخرهما كي أحدثه.

– آه قديمة بس لسه قصيرة! وأنت شكلك أقدم مني.. الفرق واضح!

قولتها وأنا أشير بيدي ـ لفرق الطول ـ بإشارة من أسفل لأعلى وأنا بملامح جدية، ضحك بصوت عالي أظن أن الحرم الجامعي بأحيائه المجاورة سمع قهقهته.

– أنتِ مكانك في مسرح أو فيلم كوميدي مش كلية طب!

قالها بعينين مسبلتين أظن أنها تلقائية لم يرد توصيل رسالة دليفري من عينيه لعيني وعقلي.

- زيك بالظبط! مكانك ملعب سلة مش هنا!

أرد بنفس جديتي فيكمل هو بنفس ضحكته، مادًا يديه مصافحًا:

- مينا.. موحد العيانيين.
- سهر.. والعيشة مرة!

ضحكت أنا، فلم يزده إلا قهقهة أعلى وأطول.

آخر ما رأيت لمعة عيني في عينيه، فابتسمت بجانب فمي الأيمن قبل أن أتحرك معه.

***

تفاصيل كثيرة لا دخل لك بها، لن تزيدك إلا جهدًا من آذانك ومزيد من الإنتظار حتى تصل إلى الجزء المفضل ...

لهذا سوف أخبرك.. «عامر» لم يمت.. أنا قاتلته!

***

أسهل الأمور.. إتخاذ قرار، اتخذنا أنا ومينا قرارنا بدون أن يخبر أحدنا الآخر، أو هكذا ظننا، قد تكون يد القدر أوحت لكل منا بما انتوينا فعله، الأهم أننا بالفعل سافرنا إلى قضاء عطلة خاصة بنا فقط في الساحل الشمالي..

لا تدع عقلك يخمن سريعًا نهايات الأفلام المصرية الخمسينية بأن البطل سوف يموت إثر حادث أليم نتيجة قيادته المتهورة وسائق ابتلع جرعة زائدة..

الأقدار تصنع ما لا تتخيله الأذهان!

– عمري ما شوفتك سرحانة، سافرتي لفين؟!

قالها بابتسامته المعتادة وعينيه أعلم شكلها رغم اختفاءها وراء نظارة الشمس التي أرى نفسي فيها ونظر للطريق مجددًا، لم أجب، اكتفيت بإبتسامة زادته ابتسام ..فور وصولنا خلعنا عنا ماضينا! فارتدينا المايوه المقدس فأصبح عيسى.. وأنا المجدلية، إروي عني ظمأي يا المسيح وسط البحر ..

طهر خطيئتي التي لا تغتفر..

بدل ملح البحر شهدًا.. وشاهدًا على عذريتي ..

ارتوي يا الأمواج بنبيذ طُهري.. أمام مرأى الشمس .

وغطاء من السماء..

فلتعلوا الأمواج نشوة..

أكتب على جسدي ترنيمة لا أظمأ بعدها أبدًا..

أنت الإله لجلالتك التقرب.. فتقبلني بقبول يليق ..

كقربان..

فلتعذبني كما ستعذب ولو بعد حين..

أقرأني سلامك الأخير علني أكون ربة الطهر بقربك..

لك نفسي.. والحياة.. آمين..

***

– بعد ما خلصنا طلعة الساحل مفيش يوم.. وجالي خبر أنه

مات.. موتة ربنا ماتبوصليش.. ربنا يرحمه.. هو تجوز عليه الرحمة؟!

تسألني بجدية رغم دهشتي وجحظة عيني في وجهت حينما إستمعت إلى كلمتي «موتة ربنا» كأنها تريد إثارة ثورة شك في نفسي وهي تضغط فتشعل سيجارة أخرى.. لا ليست أخرى قد تكون السابعة على ما أتذكر.

- عامر مات إزاي؟

قولتها بعصبية وصوت عالي غاضب أيقظ الأموات من قبورهم.. أحقًا قد يوقظهم صوت!

- موتة ربنا!

ردت بهدوء أحسدها عليه كأني لم أصرخ في وجهها من لحظات، ثم تابعت :

- احنا أسباب.. كان لازم أكون موجودة عشان يموت أنتَ غبي! مابتفهمش!

حقًا غبي كي أسمح لنفسي بأن أستمع لمختلة، ولكن معها السر.. أتخال نفسك تحاكيها لتعلم ما جري! لن يشف السر غليلك إلا لأيام أو ساعات ثم.. حينما تنطفئ النار يصبح الرماد سراب يتبخر.

***

- الساعة كام معاكي؟!

مينا! هل يستجيب اللّه لدعاءنا ويعيد من أخذه لرحابه! نفس قهقهته، نحولته، نبرة صوته، هو مينا لا يمكن حتي أن

يكون أحد التسعة والثلاثون الذين يشبهنه!

- أنتِ طارشة ولا ايه.. لا الصوت مهم في شغلتنا!

يزداد يقيني به، أشعر بروحه، تابعت على كلماته:

- تحب تسمع حاجة تتأكد!
- اللّه اللّه لماضة وكدة .
- وكدة وكل الأوضاع..
- أوي بقى والدنيا ضيقة .

ضحك مرة أخرى، فضحكت وفتحت باب سيارته وجلست براحة كأني أعرفها جيدًا، أسحب منديل من العلبة التي تتوسط تابلوه القيادة، فأمسح جبيني الذي أخرج ذكريات عقله قطرات لم أعلم هل تتمنى لقاءه أم أمر آخر؟ نظرت له ثم قبلته من وجنته اليسرى وهو ينظر لي مصدومًا كأني والدته التي صفعته على وجهه ثم قبلته فاحتضنت بكاءه ..

- انتِ مين؟!

قالها بقلق جليًا على وجهه ونبرة صوته، عضلات الوجه تشارك المعدة توترها، هكذا يكسب السحرة،

- هتعرف!

قولتها كما يحب الرجال أن يسمعوا ويروا، التشوق هو سرا نجذابهم للممنوع، حيث يجدوا ما فيه من إثارة وتشويق كممثل يواجه تهمة فيهرب عدوًا من الشرطة ليجد ضالته بين أحضان امرأة غريبة مثيرة تشاركه هروبه، نشوة الهروب من المفترض ..

- ايه يا قُط! سرحت لفين.
- قُط! يعني يوم ما تعك.. تعك مع دكر!

ضحك حتي اغرورقت عينيه بالدموع وأوشك على الصدام بسيارتين عن يساره وأمامه.

- كنتِ هتموتينا.. اللّه يخرب بيت دمك يا شيخة!
- انتَ اللي هتموت مش أنا.. ومش دلوقتي،
- انتِ ايه جن ولا مخاوية عفريت.. أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم..
- بتستعيذ وأنت شاقط.. سوق وأنت ساكت..
- حاضر.
- جدع خليك مطيع.. وشغلنا حاجة بدل الخره ده.
- قلبي الموب متوصل جاهز.
- صاحبك ده اللي متصور معاك؟!
- لا صاحبتي!.. ده أكتر من صاحبي وأخويا وأبويا وأمي كمان.. هبقى أعرفك عليه مرة.

❊ ❊ ❊

«وَلَمَّا كَانَتْ تَضَايِقُهُ بِكَلاَمِهَا كُلَ يَوْمٍ وَأَلَحَتْ عليه، ضَاقَتْ نَفْسُهُ إِلَى الْمَوْتِ»

سفر القضاة ١٦:١٦

❊ ❊ ❊

- ودي أول مرة أشوف وشك فيها.. وكنت متأكدة إني

هقابلك تاني!

- مات ازاي؟!
- مات مصلوب على جسمي! أخد آخر نفس مني وأخدت منه روحه.. بأمر ربه! ماتعيطش.. هو ما اختارش يفارق إمتى..
- واحنا.. احنا بنختار نموت أمتى؟! شكلك اتجننتي ..
- ليك الاختيار..

قالتها وتركتني خلفها تعدو بخطوات واسعة لتقف في منتصف الطريق اختلط صوت كلاكس السيارة والفرامل مع اصطكاك جسدها وهي تنظر لي وتخرج آخر نفس دخان، ألقتها الصدمة لأمتار للأمام فصنعت بركة لون أسود من اختلاط الدماء مع الأسفلت، تركتها خلفي كما تركتني.. فلقد أردت هذا أنا أيضًا .

obeikan.com

عم سعيد

«فَقَالَ لَه يَسُوعُ: «اتْبَعْنِي، وَدَعِ الْمَوْتَى يَدْفِنُونَ مَوْتاهُمْ»

إنجيل متى ٨:٢٢

أين يهرب الهروب حينما تضيق به؟!

تضيق بي الحياة، أتنفس نهاية وأزفر مزيدًا، هل يضيق السير من كثرة سيرنا؟ لعله يريد الإرتياح، أراهم أمامي، متأهبون للانقضاض والسفر اللانهائي، هل يسعد السفر، سفرنا فيه!

الضوء الأصفر لأعمدة الإنارة يغير طبيعة الوجوه في الليل، الظِل هو البطل، والليل مهاب الوحيدين.

أرى حولي من يجلسون في تجمعات أفقية، يأكلون، يدخنون، يحتضنون، يُقبلان في حيطة، تلعبان بمرح، يسير، يعدو، يجلسان، وتجمع دائري يغني ويصفقون مع صوت عود خفيض لا يباهِ صوت الزحام الأبدي .

ينتشلني طرب صوته وموسيقاه من قبضتهم إلى مبتغاهم، فأقترب رغم أني لا أهتم بمثل هذا النشاط .

عامر كثيرًا ما اهتم بالطرب!

أجلس على مقربة منهم، أتابع هل ابتعدوا من يريدوني، يصفقون، يتعالى صوت التصفيق الغير منتظم الذي

أكرهه، انتظموا ولو في تحية! تعلو الأصوات دون انتظام أيضًا، بأغنية أخرى، تختلط الطلبات حسب حدته واستعداده للقتال كي يحصل على طلبه.

عامر صاحب الصوت الأعلى دومًا، كان صاحب صوت!

يُغطي صوت خمسيني أو يجوز ستيني مبتهج على اللغط وهو يقول «خلاص! خلاااص! نقول تاني» ثم يضحك فيصفق الجميع مجددًا ولكن بإنتظام.

أنهض من جلستي وأنا أنظر في قُطر مدار رؤيتي أفقيًا ورأسيًا عنهم، أنظر خلفي للبحر كأن الموج يدغدغني، هل يشي بي إليهم؟

أنا لم أشي بأحد قط، وكثيرًا ما حافظت عليك يا عامر!

أتبين التجمع الآن، الرجل الخمسيني أو يجوز الستيني صاحب الصوت- إلى حد ما- طربي، يجاوره شاب بالكاد وصل للعشرين يمسك ريشة في اليمين و يحتضن العود ممسكًا بأوتاره بيسراه، الجمهور يرفع الايقاع بالتصفيق، أحيانًا بـ «التصفير»، أخرى بمشاركة الغناء بالهمس أو بصوت يكاد يسمعه المُشارك .

«يا اللي بتسأل عن الحياة..» يعلو التصفيق فيضحك عم سعيد ويبتسم الشاب عازف العود، يبدأ مجددًا، «خدها كدة زي ما هيَ.. فيها ابتسامة وفيها..» يصمت ويُشير لهم بيمناه المفرودة فيقول الجمع «آآآآآه» ثم يكملوا جميعًا «فيها قاسية.. وحنية.. الدنيا ريشة ف هوا.. تارارارا طايرة بغير جناحين تارارارا واحنا النهاردة سوا تارارارا وبكرة هنكون

فين في الدنيـا في الدنيااااا» ..

حقًـا بكـرة هنكـون فـين في الدنيـا؟ في مـكـان نظنه رحبًـا، مريحًـا، طيعًـا، نقنـع أنفسـنا بأنـه أكثر ممـا طلبنا وتوقعنا، نسـتمتع بحفل شواء جلودنا في لهيب غاضب، فنرى فيـه راحـة اللهيب على راحتنا، فيؤثرون على أنفسـهم ولو بهم أي شئ!

انفض الجمع، تبقـى عم سعيد، ينظر لي مُبتسمًا

– مابتغنيش معانا ليه يا وله يا كئيب؟!

أنظـر له فيخمـن أني مُنهك أو هكـذا ظننت فيه كشـفه للحجـاب، كل مـا أفكـر فيـه يقبـل القسـمة علـى اثنـين وأكثـر، أشـكك في ماهيـتي وتكـويني، أشـك في العالم من حولي، حتى عم سـعيد نفسـه، هل أراه فعلًا أم يُخيل إليّ! إذا شـككت في كل الأمور، فلماذا الجـد الأكيد الوحيد هو موتك يا عامر،

أنا عامر..

أكررهـا في نفسـي، فأعـود لأنفـض رأسـي وأنظـر حولي لأجد عم سعيد لا ينظر لي، إذا هو ليس مُهتمًا كما توقعت أن يكون قد تأثر بوجودي ومظهري الغير مهندم ووجهي الشاحب الأصفر، أسـأله دون أن أدرى كأن روح عامر تملكتني فعلًا، فأتحدث بأسلوبه وطريقته وليست لي:

– إنت مش مهتم لوجودي ولا منظري.. ما أثرتش فيك أنا!

فور أن انتهيت، أتجمد، عيني مُثبتة في نقطة بين عينيه:

- أنت مفكر نفسك مين يا ابَني! فوق لنفسك!

تُخرجني نبرته القوية من شرودي، أتكور على نفسي، يتقلص حجمي، أشعر بعظامي تتحرك، تلين، فتتحرك، فتصغر، فأعود طفلاً، طيف عدمي لا أكترث له بالنظر أو بالذِكر،

- مالك؟ احكيلي أنا زي والدك.. فضفض مع حد ماتعرفوش.. مش مضطر تذوق أو تقلل أو تنقص، احكي اللي حابب إنك تحكيه، ده إذا كنت حابب يعني .
- أنا تعبان أوي ..
- باين عليك يا ابني!

أكمل كأني لم أسمع منه رد، وأشك أني سمعته، هل أتحدث بصراحة؟ هذا قرار من شأنه الدخول في حيوات لن تمر كما بدأت .

- أنا.. خـ.. خاا.. يف أموت!
- كويس إنك بتحس..
- .....،
- أقولك.. أنا عمري ما خوفت من الموت، مش عشان قلبي ميت بقى والكلام اللي بالك فيه ده، عشان ده فرض زي ما جينا.. هنروح.
- .....
- أقولك برضه.. أنا جربت كل اللي ممكن يتجرب.. حرامه وحلاله..عشان أمشي م الدنيا وأنا فاهم ايه ممكن يوصلني لفين ، روق.. أنت كويس سيبك من الأوهام، احنا دكاترة نفسنا .

أحاول أن أترجم ما يقوله عم سعيد، لرموزي وأكوادي المُعقدة التي أفهمها، أجده هشًا، قشًا يطير مع نسمة تحاول أن تُلاحق قوة عاصفة غريمة، متى يتوقف عن الحكي الممل السخيف الذي لا ينفع ولا يشفع من ضيق!

- ما تيجي أعزمك على كاس يغير مودك خالص في البار اللي قصادنا ده!

فيُشير إلى باب مضئ لمبنى من طابقين وبه أكثر من نافذة تطل على الشارع، تروقني الفكرة، أن تشرب كأس مع شخص غريب!

الشك!

ولما لا!

- يلا يلا ما تفكرش مش هتندم صدقني!

أقف وأسير إلى الأمام فأتركه وراء ظهري هو الآخر، أستمع لصوت عامر يُناديني كأنه نداهة، إما أجده أو تنجلي العتمة، عامر.

***

عامر ١

أعياني السير! وأنا السائر في ملكوت المالك لا أكَلْ ولا أمَلْ ولا أتعب.. تعبت! أرى خيالات رمادية كأنها رؤوس الشياطين تتجسد بشخوص بشر، ليس أي بشري.. إنه عامر!

أكذب عيني، أدعك عيني بيدي الباردتين كقطعتي ثلج في كأس شراب أصفر بين يدي أنثى شهية، فلا أرى الشياطين، بل أرى عامر.

يبتسم ويشير إلى أن اتبعني ولكنه لم يقل! فأكون من أي الفريقين الفائزين أم الخاسرون، يجري بين السيارات التي تعلو أصوات أبواقها سُبابًا لحركته المفاجئة وأضواءها الصفراء التي تعلو وتهبط.. تضيئ وتغمض.. حتى الأضواء تموت.

يقف أمام البار المميز بموقعه على البحر يكرر نفسه إشارته و يختفي بين ثنايا ظلام خفيف تؤنسه شموع لا تتأثر بالهواء البارد المُبشر بنوة باردة لا ترحم من يواجهها سيًرا.

أنتظر الإشارة الحمراء كي أعبر، أخاف على عمري قطعًا لا، أحب الالتزام بالقواعد، أصل إلى البار واسمه المضئ المكتوب بالانجليزية بلون أحمر زاهي يثير نفوس الناظرين، أتقدم فيستقبلني عامر مرتديًا قميص أبيض وبنطلون وبيبيون أسودين وابتسامة لطيفة، يتقدمني بيمين مبسوطة مُشجعة على التقدم، دع لي فرصة محادثتك يا أخي! يصعد

الدرج فيختفي مجددًا، أنظر لهم ولا ينظرون، أيأبه حد بظهور كائن جديد وسط هذا الجمع؟ لا تبالِ، كل في فلكه سابح بين الدخان والكؤوس الشفافة والسوائل الصفراء وقمتها البيضاء ذي فقاقيع، أميزها فقط.. الأنثى الناعمة المثيرة تُمسك بكأسها وتضحك فتتكون وجنتيها تفاحتين حمراوين ناعمين لامعين يُخرجا من الجنة آدم وفم مفتوح عن آخره وظلام دامس داخله يحرسه صفي لؤلؤ مصفوفين كجند لا يفنوا، تظهر عينيها بعد اختفاءها داخل جفنين سوداوين ورموش تظللها من وحشة الأضواء، تبتسم، تغمز لي، أعرفها! أتعجب أقول اسمها في نفسي فتنظر إلى شفتي وتدير نظرها قبل قراءة اسمها تُكمل حديثها مع رجلها الأصلع المفتول الجالس بهدوء أسد يرعي لبؤته.

أصعد الدرج الدائري، أكرهه، أشعر بدوار كلما صعدته أو نزلته، أدور حول نفسي بهدوء كأني استكشف المكان، «زبون أول مرة!» حقيقة القول أبحث عن عامر.

وجه آخر يقف ويبتسم :

- مساء الخير تحب تقعد فين يا فندم

أنظر له ولا أبالِ باين، أبتسم ابتسامة باهتة ..

بعد أن أنهي جملته بلحظات وغير مبالي به، فور أن نظرت له تبينت من هو، لا، ليس عامر، فاروق! بائع الحلبسة بجسده النحيل ولونه الأسمر داخل بلوفر أخضر فاتح لونه وعينين ضيقتين سوداوين ذئبيتين وذقن تنبت، تنحنح وأشار بيده متابعًا:

- زي ما تحب يا فندم هنا أو هنا

أتابع «عامر!» يتركني خلفه ويتحرك دون رد .

كرسي البار الطويل، أحبه دون أسباب أوضحها، أتجه إليه في ركن بعيد عن الموسيقى الخمسيناتي الهادئة وأجلس برجلي اليسري تاركًا اليمين مثبتة في الأرض وأصنع لحن انتظار بيسراي بثلاث أصابع مثل توم وهو منتظر جيري كي يسقط ضحية فخه.

يأتيني محمود بقميص وبنطلون أسود يضع أمامي زجاجة هينيكن خضراء وكأسًا كبيرًا يحمل نفس اسم العلامة التجارية، يفتحها ويفرغ الشراب الذي أطلق صراحه بعد عذاب إلى مكعبات ثلج في قاع البئر الزجاجي، أتمعن النظر في محمود، أناديه، يبتسم ويتركني وراءه ويتحرك إلى البار والزجاجات الملونة والشفافة وانعاكساتها أسفل الإضاءة الصفراء.

يمسك بما يشبه زجاجة نحاسية لامعة يرقص بذراعيه فيحرك الكوكتيل، لا تحتاج إلى ذكاء أنه كوكتيل خمر سيشكل وقت لن ينس لشاربه، أمسك الكأس خاصتي وأقربه من فمي بهدوء ناظرًا له بترقب، تحتضن شفتي زجاج الكأس، تُغمض عيني، لا حكم لي على جسدي وأعصابه، مستسلم لغيابات الشرب، ينزل الشراب على لساني يدغدغها، تستلقي بين جنبات فمي فأبتلعه، أضغط على عيني فتضيق بخطوط جانبية تشد أنفي فتتقبلها معدتي قبولًا ساكنًا، يُشبه ما قبل العاصفة، انتظرت العاصفة كما أشاهد في الأفلام، أشعر بالشراب يأخذ طريقه إلى معدتي ببطء، ترى أيستكشف هو أيضًا أمعائي بحثًا عن عامره.

أفيق على صوت تصفيق يأتي من قريب، تصفيق هادئ بطئ، يأتيني صوت العود بنفس النغم الذي سمعته منذ ساعات، لم أنظر تيقنت أن بعد كل من رأيتهم فهو عم سعيد بلا شك، صوته، هو إذن..

صورة شارلي شابلن في بدلته المعهودة وقبعته جاحظًا ناظرًا إليَ هرب من النظر إلى الأسد وراء قفصه الحديدي، مكتوب في أعلى الاعلان **Charly in Circus**.

يتغير وجه شارلي لوجهها الأبيض الناعم وذيل حصانها البني، تكوين جسدها أصبح بضًا فائرًا، صدر ممتلئ بحليب طهور، ساقين ملفوفين رشيقين طويلين وحذاء طويل رقبته لا يزيدها إلا حُسنًا ورغبة، تخرج لي من اللوحة، خطوتين وتقف أمامي مُباشرة تبتسم فتتكون غمازتيها.

- نهلة!
- وحشتك!
- أنتِ نهلة؟!
- عارفة أني وحشتك.. شكلك اتغير عن زمان أوي ..
- إزاي انتِ موجودة دلوقتي! أنا.. أنا مش مش مصدق!
- الأرواح بتتلاقى في الملكوت.. أنت اللي حابس نفسك .
- أرواح؟!
- كلنا قولنالك أخرج بره الزنزانة اللي حابس روحك جواها !
- نهلة أنا مش فاهم انتِ بتقولي ايه .. ؟

تحضنني وتتحد شفتانا إتحاد بروتون هائج ونيترون

شبق، تتحدث أنفاسنا حتي تذوب بأحضاني، فيسقط ذراعي من علٍ ..

يأتيني عامر بوجه مبتسم فيتحدث بلباقة متسائلًا إذا راقني الكوكتيل الذي أعده خصيصًا :

- عامر.. إنتَ مش فاكرني؟!
- عادل يا فندم .

اهتزاز يخرجني من غيابات جب تحديقي أنظر حولي أبحث عن مصدره، أتحسس جيبي، هاتفي، «تيتة تتصل بك» تيتة؟! أجيب مسرعًا بصوت ملهوف وأضع الهاتف على أذني بهدوء ونفس ترقبي وبصوت خفيض :

- أ.. أ.. ألوه!
- ايه يا حبيبي التأخير ده كله.. مش عوايدك!
- مين معايا!
- حبيبي أنتَ كويس؟!

قلقها يتخلل حشايا روحي، صوتها بنبرته العجوزة الهادئة، فتكمل بتعجب

- مالك يا حبيبي!

أنظر إلى الهاتف مجددًا.. تيتة! عداد الدقائق يتحرك ثانية وراء أخرى، صوتها يكرر نفس ال «ألو» إلى أن أضغط على الزر الأحمر الدائري في أسفل الشاشة،

«بعد إذنك.. اااا.. ممكن؟!» يقولها ويكمل بيده شكل قداحة، لا للتدخين، ونعم للشيشة، أجيبه برأسي «لا»، يشكرني ويهم بالبحث عن آخر، أمسك بكتفه «عامر!» ولا يعيرني أدنى وجود، كل الوجوه «عامر» البارمان، الكابتن، المدير، هذا الشاب النحيف بشعره الأشعث، تلك الفتاة المحجبة مع صديقها، مجموعة الشبان والفتيات، جميعهم عامر!

يصيبني دوار أشعر بالأضواء تلفني والكؤوس تقرع والزجاجات تتحطم فتتناثر شظاياها والكحول فتُسكر الهواء وأنفاسه فيدور هو أيضًا.

أنزل الدرج مسرعًا، كل الوجوه تنظر إليَ، كلهم عامر، يهموا بالوقوف والالتفات لي، ألتصق بالحائط خلفي، يسقط الضوء الأصفر على وجهي كقضبان أمسك بأشعته كي أدافع عن نفسي في ما ليس لي به علم، يتقدمون، أنفاسي! أنفاسي متسارعة تعدو هي الأخرى، روحي تنشق عن جسدي، تتحرر وتتركني، ما اذا تركتني.. أموت؟!

تري أسأعلم أني مت أم أكون من ضالي العلم!

يتقدمون!

أصواتهم أيضًا صوت عامر باختلاف حدته وشدته واذا بهم يتحدثوا جميعًا في وقت واحد «أهلًا بيك في العالم الأبدي!» بأداء مسرحي، كورس يؤدي مونولج!

قضبان الأضواء تحكمني، أحاول الهروب منها واذا ما

انسلخت عنها تحررت، كلما حاولت الحركة يديروا رؤسهم «لا إوعى» كأنهم كورس لأغنية الموت، يتقدمون!

ينقطع التيار، تعلوا أصواتهم بضيق، أتخبط وأنا أتحرك بينهم فلا أصطدم أحسبه كظمآن ضربات ولكنه سراب، أخرج فأجد الأضواء والإشارة والسيارات، أعبر دون تفكير، أقف أمام الموج الأسود وعيني البحر تناديني نحو الأعماق،

- ـ سيبتنا وخرجت ليه؟!
- ـ أنت مين يا عم أنت!
- ـ عامر.. معقول نستني؟!
- ـ مش عارف ايه اللي بيحصل ده!

يعلو صوتي مع آخر الجملة وعامر ينظر لي بهدوء غير معتاد..

- أنا دفنتك بإيدي..
- صح! واجب ترحب بيا وسطكم يا يا أخي ..
- أرحب بيك! وسط مين؟
- اللّه ايه يا ابني مش لسه روح جاية وسطكم جديدة.. وأنا مش أي روح.. صاحبك يا جدع!

يضحك بصوت عالي يشاركه موج البحر والصخر ونسمات باردة .

- لسه زي ما أنت بتخاف من الموت.. مفكر نفسك هتكسره!
- ما بخافش يا عامر وبطل أسلوبك ده!

- أنت بطلت تنام بالليل وبقيت تنام كام ساعة من كتر خوفك تنام ما تصحاش ..

- عامر..

- وصلت لإيه.. نفس النتيجة وزي ما عرفت من الزملا.. إنك منزوي ولسه بتئاوح.. غلبان!

يضحك مرة أخرى وينظر في عيني مباشرة ويكمل :

- مش قادر تصدق إنك ميت من زمان!

- أنت بتهزي تقول ايه!

أشعر بضعف شهيقي ولا زفير، الأرض تعلو وتهبط في آن واحد، أحاول أن أستند إلى عامر ولكن لا يبالِ ..

- ما بلاش الكلام في الموضوع ده أنت أكتر حد عارف أني بتعب منه!

- ما تمثلش! احنا هنا مابنتنفسش أساسًا!

- اخرس بقى!

- طب اهدى اهدى.. افتح ايدك الأمانة اللي سلمتهالي لازم ترجعلك!

لا ينتظر أن أمد له يدي، يجذبها، يفتح كفي فيُلاقي كفه بعكس الإتجاه فتتلاقي أطراف الأصابع عند بداية الساعد، هل وضع شيئًا؟ يُطبق كفي ويربت، أنظر وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة «لا مش دلوقتي!»،

(٢)

صوت بوق السيارة يسب آلاف السبات رغم خلاء الطريق إلا من ضباب الفجر وقطرات الندى، يُزيد من سرعته وهو يبدل نظره بين الطريق وبين هذا الذي لا يعرفه ووجده ملقي إلى جانب الرصيف على الأسفلت، يصل إلى أقرب مستشفى والتي تبعد حوالى عشر دقائق، يزيد من الضغط على بوق سيارته بهيستريا كأنه لا يسمع صوته، يُفتح الباب الحديدي كي يدخل سريعًا، تبًا! كاد أن يصدم ممرضة تسير وهي تتحدث في هاتفها التي تضعه بين ثنايا طرحتها، ترفع ذراعيها صارخة في السيارة ثم تسبه وتكمل حديثها، يخرج من المدخل الرئيسي لمبني الطوارئ سرير «الترولي» واثنين من المسعفين أو الممرضين، لا يهم، يحملوه بهدوء ويضعوه على السرير ثم ينطلقوا كأنهم لا يسيروا ومعهم جسد! أتبعهم إلى الداخل، يستقبلني وجه رجل أربعيني في الاستقبال ..

- أنت اللي ضربته؟

- ضربت مين حضرتك!

أرد مستنكرًا كمُتهم في قفص إتهامه يواجهه القاضي بجريمته فأتابع :

- حضرتك أنا لقيته واقع على الأسفلت جنب الطريق.. حاولت أكلمه كان بيقول كلام مش مفهوم جبته وجيت جري .

- طيب طيب .

يقولها وهو يشير بيسراه بدون اهتمام أن «كفاية خلاص»، لا أعرف لماذا أراه ضابط شرطة يجلس على عرش يأمر

عبيده وإماؤه، تابع بعد أن نظر إلى كام ورقة دون النظر..

- استريح لحد الشرطة ما تيجي.

أنظر في ساعتي فكأنه وجد ضالته فيكمل مجددًا..

- ولا عايز تهرب بعملتك.

قالها وهو يبتسم باستفزاز لم أجد خير من لكمة أسددها له أعادتني لمباريات الملاكمة، صرخ من قوتها والتف حولي الموجودين محاولين تطويقي كي لا أكمل وهم قلقين من أن ينولوا من نفس كأسه رشفة، نظرت له وهو يتحدث بكلمات غير مترابطة فأكملت أنا :

- مستنيهم عشانه وعشانك!

يأخذه زميله إلى الداخل وتأتي ممرضة ومعها محفظة وموبايل الشخص الذي لا أعرفه وأجلس في الانتظار لأطمئن عليه.

- أستأذنك أشوف بطاقته يمكن أعرف حد من المكان اللي ساكن فيه؟

تُفتش في المحفظة، لماذا يبدو جميعًا كضباط وليسوا كممرضات وممرضين؟ تخرج بعض الأوراق الأبيض منها والأصفر وتقول «مفيش بطاقة»،

- هو حالته خطر؟

- لا بسيطة ممكن تتوكل أنت مش مستاهلة تفضل موجود.

تعجبت من «تتوكل» التي قالتها، شكرتها وخرجت، لم أعبئ به، يبدو في خطواتي السريعة إلى سيارتي، أخرج من

باب المستشفى فأشعر بإرتياح، لا أعلم لماذا!

***

أجاهد كي أحاول أن أفتح عيني، ما أن أبدء أولى خطواتي أواجه سحابة من الضوء الأبيض تطوقني، لازلت أطبق على يدي التي وضع عامر بها ما وضع، عامر؟! لقد دُفن على يدي!

أحاول مجددًا، أثقال الكون فوق روحي بالكاد أستطيع التنفس، ها أنا ذا أتنفس يا عامر، سُحقًا لك في غيابات الجحيم ولخيالاتك النجسة التي كادت تطيح بي!

أفتح عيني لأجد الضوء بعيدًا عن عيني، أدور في السقف ذهابًا وإيابًا وسط غيمة من الأصوات المتداخلة في بعضها لا أميز أحدها.

أخيرًا أجلس نصف جلسة أو أقل فأراهم حول سريري.. محمود في ثياب ليست رثة ولا بذقن غير حليقة، على العكس تمامًا يبدو أنيقًا في بدلة أنيقة بدون رابطة عنق، أين أنت من الشيشة وكركرة المعسل، لم أعرفك يا أخي!

فاروق! هو الآخر ليس بحلته وجسده أكثر سمنة وتيشيرت GAP وقبعة وأكثر بياضًا.

سهر؟ أصبحتي أكثر إثارة وأناقة أيضًا، يجاورها عم سعيد بكرشه الضخم ووجهه المبتسم، أنت الوحيد الذي لم تتغير!

تأتيني ممرضة تنظر إلى الأجهزة بجواري وأنا أتابعها بعينين غائبتين عن الوعي إلا من لحظات.

– ها عامل ايه دلوقتي؟!

أومئ برأسي ثم تتركني وتسير داخل أجساد عم سعيد وسهر وفاروق ولا تصطدم!

تعود لتسألني:

- في حد تحب نتصل بيه؟
- عامر!

تَخُرج.

أفتح يدي اليسرى فلا أجد شيئًا! إذن هي هلوسات الفوبيا المعتادة، أنظر في كفي مرة أخرى، فأجد رسم حرف «ع» إعتاد عامر على رسمها على الورق.

أرفع يدي بوهن ورعشة محاولًا الوصول إلى أي زرار بالشاشة بجوار سريري فلا ألمس شيئًا، يصدر صوت مزعج عالي، أشعر بأنفاسي تضيق مرة أخرى، أراهم يختفون.. عم سعيد.. سهر.. فاروق.. محمود، تيتة تظهر من بعيد تلوح لي وشفتيها تنطق اسمي، يقف جوارها عامر يغمز بعينه، تصل الممرضة تقترب مني ثم تنظر إلى الجهاز، تجحظ عينيها وتقول كلمات لا أفهمها.

«أنا دلوقتي.. جاهز!»

«لأن الله هذا هو إلهنا إلى الدهر والأبد، هو يهدينا حتي إلى الموت» المزامير ٤٨:٥١

تمت بحمد الله